سلامة موسى

ال... العصرية واللغة العربية

البَلاَغة العَصْرِيّة
واللغـة العَرَبِيـة

الغلاف للفنان جمال قطب

سلامة موسى

البَلاَغة العَصْريّة واللغة العرَبية

سلامة موسى للنشر والتوزيع
ميراث من الكفاح الهادف

الطبعـــــة الأولــــى ١٩٤٥
الطبعة المزيدة ١٩٥٣ ثم ١٩٦٤

الأهـــداء

إلى الأستاذ أحمد أمين ..

أهدي هذا الكتاب ، أليك لأنك أنت الذي

أوحيت اليّ ، من حيث لاتدري ، بتأليفه

مقدمة

كلنا نكتب الآن عن اللغة ، وكلنا نشعر بخطورة هذا الموضوع . لأننا أنتهينا ، بما نعرفه من اللغات الأوربية ، إلا أن تأخرنا اللغوي في مصر هو سبب من أعظم الأسباب لتأخرنا الأجتماعي . وقد كان الثقاب الذى أشعل هذا الموضوع في وجداني ، وبعثني على تأليف هذا الكتاب ، مقالاً نشره الأستاذ أحمد أمين في مجلة الثقافة ، أوضح فيه أن معاني الكلمات تتغير حين يتغير الزمان أو المكان . أي حين يتغير المجتمع الذي تستعمل فيه الكلمات . ويمكن القاريء أن يعد هذا الكتاب شرحاً وتعليقاً وتوسعاً في معاني هذا المقال

واللغة المثلى هي التي لا تلتبس كلماتها ، ولا تنساح معانيها ، ولا تتشابه عن بعد أو قرب . بل هي التي تؤدي المعاني في فروق واضحة كالفروق بين رقمي ٥ و ٦ . ثم هي اللغة الثرية الخصبة ، التي يحتاج إليها المتمدنون . بل هي التي تتسع أيضاً لأختراع الكلمات الجديدة ، التي تتطلبها الحاجات النامية المتزايدة لهؤلاء المتمدنين

وفي مصر طبقة من الكتاب حاولت ، ولا تزال تحاول ، أستخدام اللغة العربية وسيلة من الوسائل الأدبية لأسترداد الأمس . بل أن عندنا من اللغويين من يتحدث عن اللغة العربية كما يتحدث المستشرقون الأوربيون عن اللغة السنسيكريتية . ولكن مع فرق أصيل ، فإن هؤلاء

لا يحاولون إحياء الميت من الكلمات السنسيكريتية . ولكن أولئك يحاولون هذا الإحياء للكلمات العربية ، حين كان يجب عليهم ، لو كانوا على وجدان بالعصر الحديث ، أن يدفنوها . ومعظم هذه الطبقة يتألف من معلمي اللغة العربية في مدارسنا

وليس في هذه الدنيا شيء هو أثمن من اللغة الحسنة . لأننا نفكر وننبعث بالكلمات . وسلوكنا في البيت والشارع والحقل والمصنع هو ، قبل كل شيء ، سلوك لغوي . لأن كلمات اللغة تقرر لنا الأفكار والأنفعالات ، وتعين لنا السلوك كما لو كانت أوامر . بل نستطيع أن نقول إن سيادة البريطانيين على الهنود ، أو المتمدنيين على المتوحشين ، هي الى حد ما سيادة لغوية : أي مجموعة خصبة وافية من كلمات المعارف والأخلاق ، تحدث براعة في الفن ، وتوجيهاً في السلوك ، يؤديان الى السيادة ، وأحياناً الى العدوان

وحين تحرم لغتنا من كلمات الثقافة العصرية ، تحرم أيضاً الأمة لمعيشة العصرية . فنحن مازلنا نعيش بكلمات الزراعة ، ولما نعرف لمات الصناعة . ولذلك فأن عقليتنا عقلية قديمة ، جامدة ، متبلدة ، لر الى الماضي . حتى أننا نؤلف في ترجمة معاوية بن أبي سفيان في ت الذى كان يجب أن نؤلف فيه عن هنري فورد ، عبرة الصناعة في رنا ، أو عن الذرة وعبرتها للمستقبل

الدعوة الى لغة عصرية هي في صميمها دعوة الى المعيشة

العصرية . لأن الكاتب ، حين يستبيح أعتناق الكلمات العلمية كما هي بلا ترجمة ، إنما هو في الواقع يستبيح حضارة العلم والمنطق والرقي الصناعي ، بدلاً من حضارة الآداب والعقائد والزراعة

وواضح أن اللغة هي ثمرة المجتمع الذى يتكلم أفراده بها . ولكن المجتمع أيضاً هو ثمرة اللغة التي تعين لأفراده بكلماتها سلوكهم الذهني والعاطفي . وقد ألتُفت الى عبارة قالها الأستاذ عباس محمود العقاد بشأن الأشتراكيين في مصر لها مناسبة هنا . إذ هم يدعون – على غير ما يحب – الى اللغة العامية . وقد حسب عليهم هذه الدعوة في قائمة رذائلهم . لأنه هو يعتز بفضيلة اللغة الفصحى ، ويؤلف عن خالد بن الوليد أو حسان بن ثابت . ولكنه غفل عن التفسير لهذه الظاهرة الأجتماعية ، وهي أن الأشتراكيين شعبيون ، يمتازون بالروح الشعبي ويعملون لتكوينه . وهم لهذا السبب أيضاً مستقبليون ، وليسوا سلفيين . ولذلك يحملهم أحترامهم للشعب على إيثار لغته الحاضرة على لغة السلف ، في حين هو سلفي الذهن في لغته وأسلوبه وتفكيره وسلوكه

وليس الأستاذ العقاد وحيداً في هذه السلفية . لأني أعتقد أن ٩٠ بل ربما ٩٩ فى المئة من كتابنا سلفيون . وهذه السلفية هي نتيجة لحرمان الأمة من الرقي الصناعي ، وقصرها على الزراعة . وعرقلة ، بل عرقبة ، كل تقدم صناعي حاولته الأمة في السنين الستين الأخيرة . لأن المجتمع الصناعي كان جديراً بأن يحدث مجتمعاً مستقبلياً ، يكتب

مؤلفوه بلغة الشعب ، وتنتقل أهتماماتهم الذهنية من التأليف عن قدماء العرب ، الى التأليف عن مشكلاتنا العصرية في الأخلاق والتعليم والأقتصاد ومكافحة الفاقة . وإني بالطبع لا أغفل هنا أرتباط اللغة بالتقاليد والعقائد ، وأن هذا الأرتباط من أسباب الكراهة للتطور اللغوي . أعني أن العقلية الكلاسية في اللغة ، عقلية التقاليد التليدة ، قد أحدثت لنا مزاجاً أدبياً أجتماعياً هو النظر الى الماضي ، ومحاولة أسترداد الأمس ، والتبلد والتجمد ، في الوقت الذى نحتاج فيه الى أن نشق طريقنا الى المستقبل

وهذه هى إحدى الغايات التي قصدت من تأليف هذا الكتاب . ولكن هناك غايات أخرى . فأني أردت أن أصل بالقاريء الى تصور جديد للغة من حيث نشأتها وتكونها الى نضجها ، وما تحمل من رواسب تاريخية قد تعود علينا بالضرر ، لأنها كانت تخدم مجتمعاً ربما كانت فضائله معدودة بين الجرائم في سلوكنا العصري . كما أني ألتفت الى الضرر الفادح بتفكيرنا حين نستعمل كلمات ليست محكمة المعنى ، فلا تنعقد الصلة الحسنة بها بين الكاتب والقاريء . وهذا كثير فى لغتنا ، وهو عقبة في التفكير العلمي الدقيق . ولم أنس أن أنبه القاريء الى أن بلاغتنا التقليدية ، التي تعلَّم لطلبتنا في المدرسة والجامعة ، هي بلاغة الأنفعال والعاطفة ، في الوقت الذى نحتاج فيه الى تأكيد المنطق والعقل . كما إني توسعت في شرح المعنى الذاتي والمعنى الموضوعي

للكلمات . وهذا موضوع تخصب فيه الألتباسات والشبهات في المجادلات السياسية أو العقيدية أو الأجتماعية . وقد مسست بعض الأصلاحات المقترحة ، مثل إلغاء الأعراب ، وإتخاذ الخط اللاتيني . وأكثرت من المقارنات بين لغتنا واللغة الأنجليزية لكي أبرز للقاريء عيوب لغتنا وإرهاقها للمتعلمين بقواعد وتقاليد لم تعد لها فائدة

ويدهي أنه لو تفشى النظام الصناعي في مصر لأستتبع ثقافة علمية وأدباً مستقبلياً . وعندئذ يأخذ « التميع » في اللغة مكان « التجمد ». لأن جميع الظواهر الأجتماعية تنهض على أساس من النظام الأقتصادي. واللغة إحدى هذه الظواهر . ونحن بالطبع آخذون في تعميم الصناعة في بلادنا ، على الرغم من العرقلة ، بل العرقبة ، التي تلاقيها مصانعنا من أولئك المسيطرين الذين يرون أنه لايجوز لنا أن نعيش على هذا الكوكب إلا مزارعين وفلاحين ننتج القطن رخيصاً وفيراً

ولكن ليس من المعقول أننا ، الذين تنبهنا وأصبحنا على وجدان بالرقي العصري ، نسكت ونقول : دعنا من الكلام في رقي اللغة حتى يعم النظام الصناعي ، وهو الكفيل بالتغير المنشود . إذ يجب أن نساعد على هذا الرقي بتجديد اللغة . وحسبنا من هذه المساعدة أن نشخص الداء ، ونوميء الى الدواء ، وننبه الغافلين ، وننصح للمعاكسين

وأعظم هؤلاء المعاكسين هم الذين تخصصوا في درس اللغة العربية،

مثل خريجي دار العلوم . فإن تخصصهم هذا قد حال بينهم وبين دراسات بشرية عديدة . فضاقت آفاقهم ، وصاروا ينظرون الى لغتنا كما لو كانت إحدى اللغات المتحجرة في المعابد ، لا ينبغى تغيير كلمة أو حتى أسلوب التعبير فيها أو خطها

زد على هذا أنهم قد أصبحوا طبقة لهم وضع أقتصادي ، ووجدان طبقي ، ينهضان على أستبقاء اللغة العربية في جمودها الحاضر . ولذلك يخشون التغيير ، ويرون فيه هجوماً على مصالحهم الأقتصادية . ولكن يجب أن نذكر أن مصلحة الأمة يجب أن تعلو على مصالح أية طبقة فيها

وظني أنه حتى هؤلاء ، سيجدون في هذا الكتاب أفقاً جديداً يتجه إليه تفكيرهم

وحسبي من تأليف هذا الكتاب التنبيه ، ثم المناقشة ، ثم العمل

١٢ مارس ١٩٤٥ — س.م

راجعت فى مارس من ١٩٥٣ هذا الكتاب ، فزدت فيه فصلاً عن «علاقة اللغة بالجريمة والجنون » . وأصلحت هنا وهناك بما أقتضته الظروف . كما زدت فيه شروحاً وتعليقات

س.م

أضيف الى هذا الكتاب فى طبعته الثالثة (١٩٥٨) خمسة فصول جديدة كان المؤلف قد جعلها ملحقاً له

الناشر

تمهيد

أعظم المؤسسات في أية أمة هو لغتها . لأنها وسيلة تفكيرها ومستودع تراثها من القيم الأجتماعية والعادات الذهنية

واللغات تتفاوت . فهي مجموعة صغيرة من الكلمات ، قد لا تزيد على ثلاثمائة كلمة عند إحدى القبائل البدائية . وهي قد تبلغ مئة ألف كلمة عند أمة متمدنة قد أرتفعت فيها الفنون والعلوم

واللغة الراقية هي علم وفن وفلسفة . بمعنى أنه يمكننا أن ننظر إليها النظر العلمي ، فنبحث أصولها ، ونميز بين معانيها ، بل نضع الكلمات الجديدة لتأدية المعنى الجديد . ويمكننا أن ننظر إليها النظر الفني ، فننشد بالكلمات والجمل رفاهية ذهنية لا تؤديها الدقة العلمية . وكذلك يمكننا أن ننظر إليها النظر الفلسفي ، فنضع الكلمات الجديدة ، أو نُكسب الكلمات القديمة معاني جديدة تؤدي بعد ألفتها في المجتمع الى حال منشودة من الخير

وغاية اللغة قبل كل شيء هي الفهم . ولم نصل بعد الى اللغة المثلى، بل نحن لا نكاد نعرف كيف تكون ، إذا جعلنا الفهم أول غاياتها . فقد وصلنا في العدد الى الأرقام الهندية ، فكانت أعظم خطوة لغوية في الحساب والعلوم . فهل نستطيع يوماً أن نصل في سائر الموضوعات إلى لغة ، تنقل إلينا الفكرة الفنية أو العلمية أو

الفلسفية ، بمثل الدقة والسهولة اللتين ننقل بهما الى أذهاننا عدد الألف أو المليون ؟

والى أن نصل الى هذه الغاية ، ستبقى اللغة عاجزة عن التعبير الدقيق. إذ يجب أن نذكر من الآن ، أننا لا نعرف الدقة التامة في أي علم من العلوم إلا إذا أستطعنا أن ننزل بحقائقه الى الأرقام . ولذلك ليس مفر من أن نقول ، إن الرقي في اللغة يعني الدقة . وهو يقاس بها. فما دامت الكلمة مسيبة في المعنى ، تحتمل هذا المعنى ونصفه ، فضلاً عن معنيين مشتبهين ، فأنها تضر التفكير . كالآلة لم يحكم بناؤها ، فلا يمكن التكهن بمنتجاتها . والإنسان حيوان لغوي ، يرى ويسمع ويفكر باللغة . ولكل كلمة إيحاء معين في أذهاننا . ففي مصر نقول « وزير » وفي الولايات المتحدة الأمريكية يقولون « سكرتير» . والعمل الذي يؤديه الوزير والسكرتير واحد. ولكن إيحاء الكلمة الأولى أرستقراطي ، وإيحاء الكلمة الثانية ديمقراطي . ولهذا أثره البالغ في الشعب الذى يلوك إحدى الكلمتين ، كما له أيضاً أثره البالغ في نفس الموظف الذي يصف نفسه بأنه سكرتير أو وزير . فهو متواضع في الحال الأولى ، منتفخ في الحالة الثانية

وللكلمات توجيه أجتماعي بعيد الأثر في المجتمع . فأن كلمة «البر» من أشرف الكلمات الموحية التي تربي الأبناء ، وتبعث على التعاون والآخاء . في حين أن كلمة « الدم » تُحدث في كل عام في

بعض مديريات الوجه القبلي نحو ثلاثمئة قتيل ، لأنها تحمل شحنة عاطفية تجعل كثيراً من الرجال يقتلون بلا روية

والكاتب المتنبه ، الذى يحس الوجدان الأجتماعي ، يجب أن يؤكد المعاني البارة للأمة ، وأن يضع الكلمات الجديدة كي توجه التوجيه الفلسفي أو الأجتماعي ، وبذلك تنمو اللغة وتتطور ، ولا تركد . واللغة فى تفاعل لا ينقطع مع المجتمع الذى ينطق أفراده بها . والقيم اللغوية فى تغير دائم لهذا السبب . والمحاولة لوقف هذا التغير هى تعطيل للتطور الذهني للأمة

ومن الغايات الشريفة لكل لغة ، الأقتصاد فى التعبير . فاللغة الحسنة تتوقى المترادفات ، لأنها ثرثرة صبيانية يضيع بها الوقت . والكاتب الذكي يحيل المترادفات من التوحيد الى التنويع . فنحن نميز الآن بين الذهن والعقل ، وبين الروح والنفس ، وبين الحكومة والدولة ، وبين المثقف والمتعلم . وهذا حسن . كذلك نحن نتبع الأسلوب التلغرافي، ونتخير الكلمة التى تحمل العبرة فضلاً عن المعنى

وهذا الكتاب ، قد توخيت فيه بحث بعض مشكلاتنا اللغوية ، مع تعيين الأهداف التي نرمي إليها من اللغة . وأرجو أن أبعث به المناقشة عن القيم اللغوية العربية ، ووجوه الأصلاح فيها بالبناء والهدم . فنحن أمة متطورة ، فيجب أن تكون لنا لغة متطورة ، بل لغة متمدنة تتسع للتعبير عن نحو مئة وعشرين علماً وفناً لم يكن يعرفها العرب الذين

ورثنا عنهم لغتنا . ووجب أن يتغير رأينا في البلاغة عما ألفوه . فأنهم كانوا يقصدون منها الى أنها فن لمخاطبة العواطف . ولكنا يجب أن نزيد على هذه الغاية غاية أخرى ، هي أن تكون البلاغة علماً يراد به مخاطبة العقل . لأننا نعرف أن الحضارة التي نعيش في أحضانها قامت على الأرقام الهندية ، التي تخاطب العقل في دقة وبساطة ، أكثر مما قامت على الأستعارات والمجازات التي تخاطب العاطفة في إغراق ومترادفات

وكلمات اللغة هي بمثابة النقود التي نتعامل بها . وكثيراً ما يكون فيها النقد الزائف ، أو القديم الذى بلي وإنمسح منه نقشه . والأمة التي تهمل كلماتها ، ولا تجددها ، ولا تسك الكلمات الجديدة ، هي أخسر من الأمة التي تجيز التداول للنقد الزائف . لأننا نشتري بنقود المعدن أو الورق حاجات الجسم ، ولكنا نشتري بالكلمات حاجات الذهن والروح والأخلاق والرقي

اللغة والتطور البشري

هناك أسباب كثيرة لتطور الأنسان ، الذي وصل به الى السيادة على سائر الحيوان . فإن ضخامة دماغه قد أعدته للتفكير السديد . ثم قامته المنتصبة قد حررت يديه ، فجعلته يحمل الآلات . ومن ثم صار تفاعل بين العقل واليد . الأول يتخيل ويخترع ، والثانية تتناول وتنفذ . ثم هناك العينان في الوجه ، وليس في الصدغين كما في سائر الحيوان ، فأنهما تشرفان على مجال فسيح ، يجمع بين أشياء كثيرة ، ويجعل العقل قادراً على المقارنة والتمييز

ولو كان دماغ الأنسان صغيراً لما قدر على التفكير . ولو كانت يداه على الأرض يمشي بهما ، لما قدر على تناول الآلات والأشياء . ولو كان أعتماده على الشم بدلاً من النظر ، لصغر المجال الذى يشرف منه على الوسط . فما كان عندئذ يجد المادة للتفكير الجامع التعميمي

فالدماغ واليد والعين كلها تجمعت وتعاونت لرفع الإنسان فوق الحيوان . ولكن هناك عاملاً آخر كثيراً ما يُهَمل هو اللغة . فإن الأنسان قبل كل شيء حيوان لغوي . وللحيوان صوت ، ولكن للأنسان لغة . وفرق عظيم بين الأثنين . فأن الحيوان عندما يتألم أو يخاف يصرخ، والصراخ هنا ذاتي يعبر عن إحساسه . ولكن الأنسان عندما يتألم أو يخاف ينادي . فهو هنا موضوعي ، قد نقل إحساسه الى غيره

من زملائه

ومع هذا لا يزال حتى الصراخ غير عام بين الحيوان ، وقت الخوف أو الألم . فأن السباع وحدها هى التي تصرخ ، كما نرى في القط والكلب والأسد . أما البهائم مثل البقر أو الحمير أو الخراف ، فلا تصرخ عندما تتألم أو تخاف

ولكن يجب ألا ننسى إن الصراخ ذاتي ، أما النداء فموضوعي . الأول عاطفة كله . والثاني عاطفة وعقل . الأول حركة عقيمة لا تتحيز غير مكانها . أما الثاني فدعوة الى المجتمع

والحيوان لعجزه عن أختراع اللغة لا يختزن تفكيره . ولا ينتفع لهذا السبب بتفكير آبائه أو زملائه . ولكن اللغة عندنا جعلت الزمن تاريخياً، والفضاء جغرافياً . فالكلب الذي يعيش في القاهرة يعرف الشارع الذي به منزله وبضعة شوارع أخرى . ولكن الصبي يعرف «جغرافية» القاهرة ، ومكانها في القطر ، ومن النيل . بل مكانها على كوكبنا . فالفضاء عنده جغرافي ، بفضل هذه الكلمات : القاهرة . النيل. مصر. البحر المتوسط . أفريقيا . آسيا . الخ . وخيال الصبي لهذا السبب يتسع ، وتفكيره يمهر ، بهذه الكلمات التي ورثها من المجتمع الذي يعيش فيه

وكذلك الشأن في الزمن . فإن وقت الكلب هو ساعته أو يومه . أما نحن فلنا أمس وغد . ولنا سنين ماضية وسنين قادمة . ولذلك لنا تاريخ

ولولا الكلمات التي جعلت الزمن تاريخياً ، والفضاء جغرافياً ، لما أستطعنا أن نفكر ونختزن أختباراتنا ، فضلاً عن أختبار معاصر ينا وأسلافنا . أي لما كان لنا ثقافة . والحيوان ينتفع بأختباراته الشخصية التي مرت به في حياته . ولكننا نحن ، بفضل اللغة ، ننتفع بأختبارات غيرنا في العصور الماضية والعصر الحاضر

وتفكيرنا يمتاز عن تفكير الحيوان بالذكاء ، بسبب عظيم يتصل بالأسباب التي سبق فذكرناها . نعني أننا نفكر بالكلمات . وصحيح أننا نستطيع التفكير الساذج البدائي بلا كلمات ، كما يحدث في الأحلام . ولكن التفكير الذي تتداخل فيه العوامل وتنبسط ساحته ، يحتاج الى كلمات . ويكاد يكون من المستحيل أن نفكر بذكاء أو منطق في أي موضوع بلا كلمات . وليس بعيداً أن يكون التفكير في صميمه كلمات غير منطوقة ، كما يقول «واطسون». وأعتقادي أننا تنسى أختباراتنا في السنتين الأولين من أعمارنا ، لأننا لم نربط هذه الأختبارات بكلمات ، تجعل التفكير فيها ممكناً . لأنها لم تنقش في الذاكرة بكلمات

وكثير من التفكير الحسن ، بل أحياناً من العبقرية ، يعود الى أن اللغة التي نستعمل كلماتها قد بلغت من الرقي درجة عالية . لأن الكلمات في هذه اللغة ، تحمل المعاني الأنيقة الدقيقة التي لا توجد في كلمات لغة أخرى متخلفة من لغات أفريقيا السوداء . فلو أن « جيته»

ولد في قبيلة أفريقية ، لما أستطاع أن ينتج الثمرات الزكية التي نقطفها من مؤلفاته . لأن اللغة القبلية لم تكن عندئذ لتسعفه بالكلمات التي تؤدي معانيه . بل كانت تبقى هذه المعاني أجنة ، تؤلمه بالمخاض ولاتجد المخرج من ذهنه ، أو تخرج جهيضة

وكي نفكر التفكير الحسن ، نحتاج الى اللغة الحسنة . نعني اللغة الدقيقة التي تؤدي معنى معيناً . ولا تتجاوزه الى هوامش المعنى . وكذلك يجب أن تكون أنيقة ، لا تستطيع وصف الألوان الأصلية ، كالأبيض والأسود فقط، بل تستطيع أن تنقل إلينا الظلال والأصباغ التى بينهما . فليس من البلاغة أن تقول إن الأخضر يطلق على الأسود ، كما تقول معاجمنا . بل يجب أن نميز لوناً من آخر تمييزاً صارماً . كذلك يجب أن نضع الكلمات التي تعين الألوان الخفية بينهما . ويجب أن تكون لنا بلاغة عصرية ، لا تقتصر على مخاطبة العواطف . بل تخاطب العقل . ويجب أن تكون غايتها الأولى الفهم . وما دام الأمر كذلك ، فأن المنطق هو الأساس الأول لأية بلاغة يراد بها التعبير السديد

وكي نفهم الفهم الدقيق الأنيق، بأعتبارنا متمدنين ، يجب ألا نقتنع بالمعنى الغامض المسيب . بل يجب أن نعرف الجو السيكلوجي الذي تعيش فيه كلماتنا . وهل هي تؤدي الغاية الأولى من وجودها ، وهي التفكير الحسن ، أي الفهم ، أم لا ؟

حين تربي الذئبة الأنسان

كثيراً ما كنا نسمع عن أطفال بشريين ، يعيشون مع الحيوان ، وينشأون النشأة الحيوانية . وكنا نحمل هذه القصص على أنها نوع من الأختراع الذي لا يصدق . ولكن الواقع يثبت إن هناك أطفالاً خطفتهم الحيوانات وقامت بتربيتهم . فنشأ هؤلاء الأطفال وعاشوا في الغابات

والذئبة أقرب الحيوانات الى إتخاذ مهمة الأمومة للطفل البشري . وسبب ذلك أنها تغزو القرى والحقول المجاورة ، وأكثر مايكون هذا في الليل، وأقله في النهار . فأذا وقعت على طفل في الحقل ، غفلت عنه أمه ، حملته كي تأكله . فاذا تلمس الطفل حلمات ضرعها ، ورضع ، تحرك حنوها ، فعطفت عليه . وأخذت عاطفة الأمومة والرعاية ، مكان عاطفة الجوع والأكل . وعندئذ ترعاه كأنه أبنها . ويتفق هذا في القليل النادر

والمعروف إن الرضاع يثير في الأم حناناً لاتحسه قبله . ولذلك يقال ، إن المرأة التي تريد أن تتخلص من وليدها عقب الولادة ، بقتله أو نبذه ، إنما تفعل هذا قبل أن ترضعه ، لأنها لاتحس حناناً عليه . فاذا أرضعته شق عليها الأنفصال منه ، وحنت عليه

وهناك حوادث تم تحقيقها ، وثبت ثبوتاً مؤكداً فيها ، إن الذئاب خطفت بعض الأطفال . فنشأوا في جحورها ، وعاشوا مع الذئاب .

ويمكن القاريء المستطلع أن يقرأ كتاب المستر چيسل عن «طفل الذئاب وطفل الإنسان» Wolf Child and Human Child; by A. Gesell.

فأن المؤلف كان يعيش في الهند في ١٩٢٠ ، فسمع عن صبي بشري ، يعدو عند الغسق مع ذئبة ويسلك سلوكها . وكان بالطبع لايصدق هذه الأشاعة . ولكنه بعد تكرارها ، عمد الى بندقيته ، وتعقب الذئبة الى الجحر . فقتل الذئبة ، وقبض على صبيتين كانتا في جحرها. وكان هذا في ١٧ أكتوبر من ١٩٢٠ . وكتابه هو قصة هاتين الصبيتين

ولنترك الصغرى منهما ، لأنها ماتت بعد سنوات . أما الكبرى ، فيرجح المؤلف أنها ولدت في ١٩١٢ . ولايعرف متى خطفت . وكان المؤلف وزوجته يديران ملجأ ، فوضعت الصبية فيه . وكان عمرها وقتئذ ثماني سنوات . فكانت في النهار تنام أو تقعد ووجهها الى الحائط . فإذا جاء الليل نشطت ، وصارت تجري على أربع : يديها وركبتيها . وكانت تشرب الماء لعقاً بلسانها من الآناء الذي تنحني فوقه ، وتلعق منه كالكلب أو الذئب. ولم تكن تخشى الظلام . فاذا كانت ساعة معينة في الليل لا تتغير ، عوت عواء الذئاب . وإذا أقترب منها أحد ، كشرت عن أنيابها . وكانت تفتش على الرمم وتأكلها . وكانت تحب جراء الكلاب وأطفال الماعز والقطط والفراخ ، وتلعب معها جميعها . ولكنها كانت تنفر من الأطفال البشريين

قلنا إنه قبض عليها في ١٧ أكتوبر من ١٩٢٠ . ونقول إنها بقيت

تمشي على أربع ، بل تنهض على أربع ، الى ٢٤ مايو من سنة ١٩٢٢، حين وقفت على قدميها بعد أن أغريت على ذلك

وفي أغسطس من ١٩٢٢ وقفت على ركبتيها ، وأكلت من الطبق بيديها ، بدلاً من أن تأكل بفمها مباشرة . ولكنها مازالت الى هذا التاريخ تلعق الماء

وفي نوفمبر من ١٩٢٢ قالت « ما » لرئيسة الملجأ ، وقالت أيضاً «بهو . بهو» في طلب الماء أو الطعام . ولم تكن قد نطقت قبل ذلك بكلمات . مع أنها كانت تصرخ أو تصيح

وفي ١٠ يونيه من ١٩٢٣ وقفت وحدها على قدميها بلا إغراء

وفي ٩ يناير من ١٩٢٤ بدأت تخشى الظلام . وكانت أيام توحشها مع الذئبة تخشى النهار ، وتختبيء ، ثم تنهض في الليل ، وتغزو الحقول والقرى مع أمها الذئبة

وفي ١٩٢٥ شربت من كوب على الطريقة البشرية

وفي ١٩٢٦ بلغ مجموع الكلمات التي عرفتها ثلاثين كلمة

وفي ٢٩ يناير من ١٩٢٦ مشت على قدميها مع الأطفال

وفي ٧ يونيه من ١٩٢٦ رفضت أكل الرمم

وفي ٦ ديسمبر من ١٩٢٦ أبدت حياء ، ورفضت الخروج من غرفة النوم بدون ثياب . وكان عمرها وقتئذ من سنة ولادتها ١٤ سنة ، ومن يوم تركها للذئبة ٦ سنوات

وفي ١٤ يناير من سنة ١٩٢٧ بلغت كلماتها ٤٥ كلمة
وفي ١٥ يوليه من ١٩٢٧ بدأت تخشى الكلاب إذا نبحتها
وفي ١٤ نوفمبر من ١٩٢٩ ماتت وعمرها نحو ١٧ سنة

* * *

ولنا في حياة هذه الفتاة الهندية المخطوفة عبرة ، بل طائفة من العبر...

العبرة الأولى : إن السلوك يستقر في السنوات الأولى من الطفولة ، ربما كانت السنوات الأربع أو الخمس أو الست . وإننا بعد ذلك يشق علينا الى ما يقارب الأستحالة أن نغير هذا السلوك . ونعني بالسلوك الأستجابات العاطفية التي ينشأ عنها تصرفنا

والعبرة الثانية : إن ما نسميه طبيعة وغريزة ، إنما هو في أحوال كثيرة تعليم وقدوة . حتى المشي ، ننساه إذا عشنا مع ذئبة . بل يذكر المؤلف إن هذه الفتاة ، عندما قبض عليها ، كانت قد برعت في المشي على أربع ، حتى كانت تسبق المطاردين لها من البشر

والعبرة الثالثة : إن أسلوبنا الذي نتخذه في المشي ، والخوف والأكل والشرب والغضب .. كل هذا مكتسب بالوسط ، وليس وراثياً

والعبرة الرابعة ، وهذا هو الذى قصدنا إليه من هذا الفصل ، إن اللغة هي التي تعين لنا السلوك والتصرف البشريين . فأن هذه الفتاة قبض عليها وهي في الثامنة ، فأحتاجت الى سنتين كي تقول «ما»

للرئيسة ، ولكي تقول «بهو . بهو » في طلب الطعام والشراب . وبدأ ذكاؤها عندئذ يتفتق . فكان أستظهار الكلمات ترافقه تغيرات في السلوك . وهذه التغيرات تدل على حركات ذهنية ، وتفاعل بين الفتاة والوسط

فاذا كان أحدنا يعيش في غابة أو صحراء ، منفرداً بلا لغة ، فإن ذهنه لن يتفتق . بل يبقى مغلقاً ، مثل هذه الفتاة الهندية ، من حيث الأعتبارات البشرية . ولم تكن هذه الفتاة جاهلة من حيث الأعتبارات الذئبية ، ولكن ذهنها كان عاطلاً عندما قبض عليها وعمرها ثماني سنوات . وبقي عاطلاً أو كالعاطل ، الى أن ماتت بعد أن بلغت ١٧ سنة . لأنها لم تحصل إلا على ٤٥ كلمة . أي مقدار ما يمكن أن يعرفه أبله . فهي من حيث الذكاء الطبيعي ، ربما لم تكن ناقصة . ولكن من حيث تفتق هذا الذكاء ، كان النقص واضحاً . وأكبر أسبابه أنها كانت خرساء ، لاتعرف الكلمات البشرية التي تحمل إليها العواطف والأفكار البشرية. ومع أنها قضت في عِشرة البشر سبع سنوات ، فإن ذهنها لم يتفتق الى الدرجة التي كان يبلغها الطفل في هذه السن . لأن الطفل يولد ولوحة ذهنه مسحاء ، تتقبل التعليم الجديد . ولكن هذه المسكينة ألتقت بالبشر ولوحة ذهنها حافلة بالعواطف التي بعثتها فيها عشرة الذئاب . ومن هنا صعوبة تعلمها

واللغة هي التي تجعل الزمن تاريخياً ، والفضاء جغرافياً . وهذه

الفتاة حُرمت اللغة ، فحُرمت بذلك الفهم . وشرعت تفهم السلوك البشري وتمارسه ، بدلاً من السلوك الحيواني ، حين تعلمت الكلمات . وكانت كل كلمة جديدة ، تعين لها فكرة جديدة ، أو عاطفة جديدة ، ثم سلوكاً جديداً

الأنثربولوجية واللغة العربية

كان يمكن أن أستغني عن هذا الفصل في هذا الكتاب . ولكني أعالجه في سرعة وإيجاز كي أجعل القاريء يألف الطريقة ، ويدخل في المزاج ، اللذين تتألف منهما اللغات ، بل ترتقي

فإن الكلمات أصوات ، نشأت بين البرمائيات كالضفدع ، كي ينادي الذكر الأنثى . وكانت غايتها الأولى لهذا السبب جنسية . بل مازلنا نرى أن أغاريد الطيور ، التى ينضع بها الجو في الربيع ، إنما يقصد بها في الأغلب نداء الجنس الآخر للتناسل . والصوت يعبر عن العاطفة ، ولذلك يجب ألا نستغرب قول «فرويد» أن الباعث الأول للنشاط البشري هو الشهوة الجنسية . ويجب ألا يصدمنا هذا القول ، لأن فرويد قد بصر من خلال هذا القول ، الى الجذور الأولى التي تختفي في جوف التطور . ومهما تنتشر الفروع ، وتبسق في السماء ، فأن جذورها لاتزال في الأرض

ولغتنا العربية مجموعة أو خليط من كلمات الحضارة والبداوة ، بل الغابة الأولى ، حين لم يكن يعرف الإنسان الزراعة أو الصناعة . أنظر مثلاً الى كلمة «كُخ» التي تعم جميع البشر في نهي الطفل عن شيء . فأنا وأنت والقردة والأنجليز والألمان والصينيين والهنود والإغريق إلخ سواء في هذه الكلمة التليدة

نشأت لغتنا ، كما نشأت جميع اللغات ، في الأوساط البدوية الأولى . وكان أستنباط المعاني يجري وفقاً للوسط . ونستطيع الآن ، بتحليل الكلمات والرجوع الى أصولها القديمة ، أن نعرف العقائد والقواعد الأجتماعية التي كان يعيش أسلاف العرب فيها . أنظر مثلاً الى كلمة « الحياة ». فإنها مشتقة من «الحيا» أي عضو التناسل عند المرأة . ومازال الفلاحون عندنا يقولون «حيا البقرة » أو «حيا الفرس». ذلك أن الإنسان البدائي لم يكن يعرف أن علاقة الرجل بالمرأة تؤدي الى التناسل ، فكان يعتقد أن الأم هي الأصل الوحيد للأولاد . بل أنه كان يصنع التماثيل « للحيا » ويحملها ، بأعتقاد أن الحيا أصل الحياة . وأنه مادام يحمل تمثاله ، فإنه سيعيش وينجو من المخاطر . وعلى هذا الأعتقاد ، بأن الأم هي كل شيء ، صار النظام الأجتماعي عند الإنسان البدائي أموياً . وهذا واضح عند قدماء العرب . ويتضح أكثر عندما نعرف أصل كلمتي « الضِمد » أو « الحماة »

وتطور الناس ، وأنتقلوا من النظام الأموي الى النظام الأبوي . ولكن بقيت في لغتنا « الحياة » تدل على أصولنا وجذورنا الأجتماعية

ثم من « الرحم » أشتق الناس الرحمة . أي أن الرحمة كانت في الأصل العلاقة القائمة بين أبناء الرحم . وهذه الكلمة تدلنا على أن النظام الأموي سبق النظام الأبوي . ثم أرتقى الناس ، فصارت الرحمة فضيلة عامة بين أبناء القبيلة أو الأمة . كما أشتققنا نحن الأخاء

البشري من الأخوة بين أبناء العائلة

وكذلك عرف الأنسان البدائي الروح من الريح . والنسمة من النسيم. والنفْس من النَفَس (بفتح الفاء) . لأن الفارق الوحيد عنده بين الحياة والموت لم يكن أكثر من التنفس . فإذا أنقطع كان الموت . ومن هنا نشأت عقيدة الروح

وهذه الكلمات ، وكثير غيرها ، تكشف لنا عن اللبنات الأولى التي تكون بها أساس اللغة العربية . ولكل كلمة منها معنى أنثربولوجي يوضح لنا نشأة الأفكار والعقائد

فنحن في عصرنا نميز مثلاً بين الأسود والأزرق والأخضر ، ولكن معاجمنا لاتزال تحتفظ بالمعنى القديم لهذه الألوان ، وهي أنها لون واحد . ويشارك العرب معظم الأمم البدائية في إشتقاق الملاحة ، بمعنى الظرف والصَبَاحة ، من المِلح . لأن المِلح كان من الأشياء الثمينة التي لم يكن يحصل عليها غير المترفين

وأعتبر أيضا أشتقاق المساعدة من الساعد . لأن المساعدة تعني أن أحداً يستعمل ذراعه في خدمتنا . وأعتبر الأنفة من الأنف ، والشمم من الشم . لأننا حين نأنف من شيء نرتفع بأنوفنا . أو أنظر كيف أشتقت المعاقبة من التعقب ، لأن الإنسان البدائي كان يعاقب خصمه بأن يتعقبه حتى يجده ويثأر منه . ومازالت معاجمنا تقول : « تعقبه : تتبعه وأخذه بذنب كان منه ». أو أنظر الى كلمة « كَفَ » بمعنى مَنَع ،

فإنها مشتقة من الكَف أي باطن اليد . لأننا نمنع الناس بأيدينا ، أي بكفوف أيدينا . والكفيف سمي كذلك ، لأنه بمثابة من يضع كفه على عينيه . ثم أنظر الى فعل « أحصى» بمعنى عد . فإنه مشتق من الحصى ، أي صغار الحجر . وذلك لأن الانسان البدائي كان يجهل العد بالأرقام . فكان إذا شاء مثلاً أن يعرف ما عنده من خراف ، وضع في جعبته عن كل خروف حصاة . فإذا شاء العد أخرج حصاة عن كل خروف. وحسبه هذا . وقد أشتق الرومان الحساب والعد على هذه الطريقة نفسها ، كما نرى في الفعل الأنجليزي « كالكيوليت Calcu-late » بمعنى حسب من «كالكيولس Calculus » بمعنى الحصاة أو الحجر

والمشهور أن لغتنا في أصلها ثلاثية الحروف . ولكن الأغلب أنها كانت ثنوية ، أي أن كلماتها كانت من حرفين فقط . فها هنا أربع وعشرون كلمة تدل على معان متقاربة ، وهي أن شيئاً قد خرج من شيء. وهي : نبأ . نبت . نبث . نبح . نبذ . نبر . نبس . نبش . نبض . نبط . نبع . نبغ . نتأ . نتح . نثر . نثل . نفث . نفخ . نفذ . نفر . نغض . نغط . نط . نطف . نطق

وهذه الكلمات مترادفة في معنى الشيء يخرج من شيء آخر . ولكن من مصلحة اللغة والفهم ، أن نعين لكل منها معنى يختلف عن الآخر . وهذا هو ما قضى به منطق اللغة والتمييز الذهني

ومن هذا الفصل الموجز ، يتضح لنا أن كل لغة إنما هي بمثابة المصنع الذي يعيش في عصرنا ، ومع ذلك يجمع في مستودعاته فأساً من الحجر كانت تستعمل قبل ثمانية آلاف سنة ، وإبرة من الشوك كان أسلافنا يستعملونها قبل مئة ألف سنة ، وسيفاً من البرونز كان يستعمل قبل أربعة آلاف سنة . وبين مصنوعات أخر مثل الرديوفون والمصباح الكهربائي والسولفانيلاميد الخ . ومن هنا هذا الأرتباك الذهني الذي يؤدي الى قلة الفهم أو اختلاطه . ذلك لأننا تستعمل أدوات قديمة كي تؤدي لنا خدمات جديدة

اللغة والسيكلوجية

الحق أن هذا الكتاب بجميع فصوله ، هو بحث سيكلوجي في القيم اللغوية . وإذا كان هذا يجرنا الى أبحاث أخرى أجتماعية أو تاريخية ، فأن الغاية الأولى يجب أن تبقى ماثلة ، وهى أننا ننظر الى اللغة من خلال العدسة السيكلوجية

ولم تُعَط اللغة سوى القليل من حقها من الدراسة السيكلوجية الى الآن . وصحيح أن الرغبة في الدعاية قد حملت قليلين على هذه الدراسة في اللغات الأوربية ، ولكن الموضوع لا يزال في أولياته . وهو بكر في اللغة العربية

وقيمة اللغة في التفكير ، وفي السلوك ، لاتزال الى حد كبير مجهولة . والعجب أننا لم نلتفت من قبل الى أننا نفكر بالكلمات . وأننا لانعرف حقائق الأشياء التي نتناولها بالذهن أو باليد ، وإنما نعرف أسماءها فقط . وكثيراً ما يختلط علينا الأسم والمسمى . فنظنهما شيئاً واحداً . مع أن الحقيقة هي أن الكلمات رموز للأشياء . والشبه بينها وبين النقود كبير هنا . فأن القرش قطعة من المعدن نرمز بها الى قوة شرائية معينة . ولكن هذه القوة خاصة بنا نحن ، أي بمجتمعنا . وليست خاصة بالقرش ، من حيث أنه قطعة من المعدن

وكذلك الشأن في الكلمات . فأنها رموز فقط . فإذا لم نتنبه الى

هذه الرمزية ، فأننا نقع في ألوان من السخف ، ونتورط في أنواع من المعاني ، التي قد تضرنا بدلاً من أن تنفعنا ، وتستبد بنا بدلاً من أن تستخدمها . وكثيراً ما يحدث هذا لنا . فأن مانسميه تفكيراً مثلاً ، إنما هو ، أو معظمه في أغلب الأحوال ، كلمات تجري على المستوى العاطفي ، فتؤدي الى الأنفعال بدلاً من التفكير

ومنذ نولد ، يتسلط المجتمع علينا بالكلمات التي نتلقنها منه . فننشأ وقد فُرضت علينا مقاييس أجتماعية وأخلاقية وروحية من هذه الكلمات . ونجد أننا نسلك سلوكاً معيناً ، بما غرسته هذه الكلمات في أذهاننا من القيم . ونحن في هذا السلوك نعتقد أننا أحرار ، ولكن الواقع أننا مقيدون بهذه الكلمات التي بعثت في أنفسنا أنفعالات ، وأكسبت أذهاننا ، فيما لا مفر لنا من التسليم بهما . لأن هذه الكلمات قد تعلمناها من الصغر ، حين لم يكن الذهن قد نضج وتدرب على التساؤل والنقد . فنحن نسلم تسليماً أعمى ، ولا نعترض على المعنى الذى تفرضه علينا الكلمة . فنحن نقول : التشاؤم . والسماء . والروح. والحياة . والشرف . والوطن . والشجاعة . الخ . ولم يقف أحدنا قط ويسأل : ما هذه الأشياء ؟ لأن جميع هذه الكلمات تحدث في أنفسنا إنفعالاً ، نظن أنه طبيعي ، لا يحتاج الى التساؤل . أو أتخذت مقاييس ذهنية نعيش بها ، ونسلك في حياتنا على مقتضاها . ونظن ، حين نستعمل هذه الكلمات ، أننا نفكر . والحقيقة أن التفكير هنا في

حدود هذه الكلمات ، لايتجاوزها . بل الواقع أننا لو شرعنا في التفكير السديد المحكم في إحدى هذه الكلمات ، لهاج علينا المجتمع . وذلك أن هذا المجتمع قد ورث هذه الكلمات ، وأنتظم بمعانيها . فهو يأبى على الفرد أن يستقل ويفكر منفصلاً عنه . لأن هذا التفكير هو عندئذ هجوم على هذا المجتمع ، أي على عقائده وعاداته الذهنية وعواطفه النفسية

ولكل منا مجتمعه الذي يتأثر به ، ويفهم معاني الكلمات كما أكتسبها منه . فكلمة الشجاعة ، مثلاً ، تحمل طائفة من المعاني تختلف بأختلاف المجتمعات

فالشاب في حلبة المصارعة في نادٍ رياضي ، يفهم من الشجاعة معنى خاصاً . والجندي في الجيش يفهم من هذه الكلمة معنى خاصاً آخر ، يختلف من المعنى الأول . وحين أقول « شجاعة الأسد » ، التى تختلف أيضاً من المعنى الذى أقصده حين أقول « شجاعة شهداء المسيحية»، أفهم معنى يختلف مما أعني حين أقول « شجاعة سقراط » . ثم لاتنس شجاعة اللص الذي تشأ في عصابة تفتك وتغتال . ثم شجاعة ذلك الفيلسوف ، الذي يرفض القتال ، ويرضى بالأعتقال لأنه «عالمي». ثم شجاعة الكاتب الذي لايبالي الرأي العام . الخ

والكلمات بذلك لا تكسبنا إتجاها أخلاقياً على « المستوى الذهني» فقط، بل تكسبنا أيضاً إتجاهاً مزاجياً على « المستوى العاطفي ». فأن كثيراً مما نشمئز منه ، أو نطرب له ، أو ننشط إليه ، يعود الى

الكلمات التي تعلمنا وأنغرست بها عواطفنا . وحسب القاريء أن أذكر له أن كثيراً من الرجال والسيدات في مصر يشمئزون من الأنكليس . مع أنه مثل سائر السمك ، بل يعد من أجوده . وذلك لأنه يسمى «ثعبان». بل أنظر الى كلمة « بجعة» فأنها أسم شنيع لطائر يعد تحفة في الطيور . ولذلك لم يستطع شاعر عربي أن يستغل الطاقة الفنية في هذا الطائر لشناعة أسمه . مع أن أسمه في الأنجليزية والفرنسية جعل كثيراً من الشعراء الأنجليز والفرنسيين يذكرونه في أشعارهم . وكذلك يجب أن نذكر أن كثيراً من شعرائنا يذكرون « البلبل» بكثرة ، لحلاوة أسمه فقط ، مع أنهم لم يروه قط ، ومع أنه ليس فيه شيء من جمال البجع

وهنا لنا عبرة . فإذا شئنا أن نعمم رأياً أو عقيدة ، فلنختر لها أسماً مغنطيسياً جذاباً

والخلاصة أننا نفكر بالكلمات . وكثيراً ما نُخَدع فنظن أننا نعالج الأشياء ، في حين أننا نعالج أسماءها فقط . ثم أن الكلمات تكسبنا إتجاهاً أخلاقياً ، أو تكون لنا مزاجاً فنياً . وأحيانا تحمل إلينا تقاليد ، هي رواسب الثقافة القديمة ، التي كثيراً ما تضرنا في مجتمعنا العصري

والفصول القادمة هي توسع في هذه المعاني

البيئة واللغة

الأصل في هذا الكتاب مقال نشره الأستاذ أحمد أمين في مجلة «الثقافة » أشار فيه الى أن الكلمات تتغير معانيها بتغير الزمن والبيئة ، جاء فيه :

« إن اللغة تؤدي معانيها في دقة وإحكام في مواد العلوم ، كالرياضة والطبيعة والكيمياء . ومصطلحاتها مضبوطة ، قل أن يعتريها غموض أو إبهام . وقريب من ذلك ، التاريخ . فاللغة قادرة على أداء معانيه وحمل رسالته أداء حسناً ، وإن لم تبلغ في ذلك مبلغ العلم . فاذا نحن جاوزنا ذلك الى الفلسفة والأدب ، رأينا اللغة مسكينة عاجزة عن أداء المعاني في وضوح وضبط وإحكام . حتى المصطلحات ، من الصعب تعريفها وضبطها . فما أصعب أن تُعرّف «الوجود »، و «الحقيقة» و «ما وراء الطبيعة»، وما الى ذلك . وما أصعب ما تُعرّف «الشعر» و «الأدب » و «الخيال» ونحوها . وكذلك في فروع الفلسفة والأدب. فمن الصعب تعريف «الجمال والجميل» و «الفضيلة والرذيلة» و «الزمان والمكان» و «العدل والحرية». ومن العسير تعريف «القصة والرواية والمثل ». وما أكثر ما يقع الناس في الجدل والحجاج ، لأن كلاً يتكلم وفي ذهنه معنى للشيء غير ماعند الآخر . ولو أتفقوا على التحديد ، لأتفقوا على النتائج . ولا أنسى

حادثة رويت لي ، وهو أنه من زمان أرادت حكومة العراق التعاقد مع الحكومة المصرية بالمراسلة والخطابات . فكان الأتفاق مستحيلاً ، لأن كلتا الحكومتين كان لها معنى خاص في مصطلحاتها لا تفهمه الأخرى. ولم يتم الأتفاق حتى تمت المشافهة والأتفاق على معاني المصطلحات . وسمعت محاضرة لفاضل عراقي في التربية ، فثار جدل حول الموضوع ، تبين أن سببه الأختلاف في المصطلحات . فهم يطلقون أسم « المدارس الداخلية » على غير ما نطلق ، ويسمون «الفصل » ما نسميه نحن بالسنة ، ويسمون «التوقيعات» ما نسميه نحن بالترقيات ، ويسمون «مدارس الحضانة» ما نسميه نحن برياض الأطفال . وهكذا

« من أسباب وقوع الناس في الخطأ اللغوي ، عدم دقتهم في الأستنتاج . فهناك عقول تستنتج من الجملة أكثر مما يلزم ، وهناك عقول تستنتج منها أقل مما يلزم . وكلاهما خطأ . إذا قلت : « إن الغول مرعب» فأستنتجت منه أني أقول :« إن الغول موجود » فقد أخطأت ، وأستنتجت أكثر مما يلزم . لأن الخيال قد يرعب ، والوهم قد يرعب ، ولو لم يكن الشيء موجوداً . وإذا حدثتك عن فرس بأنه أشهب ، فأستنتجت أني أقول إنه موجود ، كان أستنتاجك صحيحاً . ومن الناس من لا يفرق بين القضيتين . وليس الأمر مقصوراً على الجمل ، بل دلالة الألفاظ على المعاني تختلف جد الأختلاف بين الأشخاص ، بحسب مدنيتهم وثقافتهم وعقليتهم . فاذا قلت : « كرسي » لم يكن معناه عند

الفلاح القروي كمعناه عند المدني المتحضر . وكذلك الشأن فى كلمة «بيت»، و «دولاب»، و «سرير» . وإذا قلت : « علم الحساب» فمفهومها عند الصانع المتعلم تعلماً بسيطاً ، ليس كالمعنى الذي يفهمه العالم بالرياضيات . وهكذا . وهذا ما يجعل الناس، إذا أختلفت مدنياتهم وعقلياتهم وثقافتهم ، لا يتفاهمون تفاهماً صحيحاً . ومن أسباب ذلك عدم دلالة الألفاظ على معان واحدة في الرموس المختلفة . ولا تصدق أن معاجم اللغة تستطيع أن تشرح دلالة الألفاظ شرحاً تاماً صحيحاً ، ولكل كلمة هالة غير معناها الأصلي يعجز المعجم عن شرحها. فدنيا الأطفال التي تعين على شرح الألفاظ ، غير دنيا الرجال. ودنيا الفلاح ، غير دنيا المتمدن . ودنيا الجاهل ، غير دنيا العالم . وكل يفسر الألفاظ حسب دنياه

« يتصل بهذا أن كل لفظ من ألفاظ اللغة ، يوحي بأشياء تختلف بأختلاف الأشخاص حسب بيئتهم وتجاربهم في الحياة وغير ذلك . فكلمة أبيض توحي الى الفلاح باللبن ، وقد توحي الى الطفل بالسكر ، وقد توحي الى سكان البلاد الباردة بالثلج . وكلمة «وزير» توحي الى الشرقيين بمعان غير ما توحي به عند الغربيين . وكلمة «العيد » توحي الى الأطفال بمعنى الثياب الجديدة والأراجيح ، وعند أطفال آخرين بالهدايا تهدى إليهم ، وعند الرجال بالزيارات والتهنئات إلخ . وكلمة «البرلمان» و «نظام الحكم» توحي بمعان مختلفة في الأفراد المختلفة

والأمم المختلفة . وهذا سبب آخر من أسباب الأختلاف بين الناس في الأفهام والفهم ، فوحي الألفاظ عند الناس يختلف إختلافاً كبيراً

« بل قد يكون اللفظ يوحي بمعنى عند الناس في عصر لأرتباطه بحادثة أو نادرة ، فإذا نسيت الحادث أنقطع وحي اللفظ . فمنذ سنين كانت كلمة «تعديل الأساس» و « ردم البرك » و «الحكم الصالح »، تستثير منا الضحك ، لإيحائها بمعان خاصة . فلما زال الأيحاء زال التأثير . ولذلك أعتقد أنا فقدنا كثيراً من كتب الجاحظ وقطع الأدب الأجتماعي ، لأن بعض ألفاظها وجملها كانت توحي بمعان معروفة ، فلما تقادم الزمن جهلت ، فبطل سحرها . وإن شئت فأقرأ رسالة التربيع والتدوير للجاحظ ، وهي تدور حول السخرية من « أحمد بن عبد الوهاب » ، تشعر بغموض في بعض الجمل والإرشادات . وسبب غموضها أنها كانت إشارات الى أشياء مفهومة في زمنها ، ثم أنقطع وحيها ، فغمض معناها

« ما وظيفة اللغة ؟ يخطيء من يظن أن اللغة تؤدي غرضاً واحداً ، وهو نقل المعنى من ذهن الى ذهن . فلها أغراض أخرى كثيرة قد يصعب حصرها ، وقد يبعد إدراكها . فمن أعجب أغراضها أحياناً أنها تستعمل لتخدير الأعصاب ، كتمرينات السحرة مثل ألفاظ «شمهورش» و « جلجوت » ونحو ذلك . فهي لا تؤدي معنى ، ولكن تخدر الأعصاب بغرابتها وتأليف حروفها . ولذلك لا يصح أن نحاول

فهم سجع الكهان فهماً تاماً ، فهي لم يقصد منها الأفهام التام ، بقدر ماقصد منها التخدير والمعاني المحلولة . وأحياناً يقصد بالألفاظ مجرد ما توحيه من نغمات موسيقية ، لها أثرها النفسي كأثر الموسيقي. ولذلك لم تكن تخلو الأدعية الدينية ، إذا تليت فى المعابد بلغة أجنبية ، من أثر قد يكون بالغاً . لأن الإلفاظ توحي بمعان سحرية موسيقية ، وإن لم تُفَهم معانيها الأصلية . وهذه لغة الإنسان الأول ، كانت صيحات متشابهة اللفظ ، ولكنها أحياناً تدل على الخوف ، وأحياناً على طلب النجدة ، وأحياناً على التحذير من خطر ، وإنما تختلف دلالتها بأختلاف موسيقاها » أ هـ

اللغة والمجتمع

يجب على قاريء الفصل السابق أن يفهم أكثر مما قال الأستاذ أحمد أمين . أي يجب أن يفهم ، أن أختلاف البيئة والمجتمع والتاريخ والجغرافيا ، يغير معاني الكلمات التي نستعملها ، ونعتقد أننا سواء في فهم معانيها . فعبارة «سلطة الحكومة» تعني معاني مختلفة في الهند والولايات المتحدة ومصر وألمانيا وروسيا واليمن . وهذا الأختلاف، الذي ينشأ من الجغرافيا ، يقابله أختلاف آخر ينشأ من التاريخ . ومن هنا الصعوبة التي نجد في فهم الكتب الدينية القديمة ، لأنه كان للكلمات التي أستعملت مثلاً قبل ألف سنة ملابسات لا نجد مثلها في عصرنا . بل كذلك كتب التاريخ ، فإن المؤلفين يلتفتون الى معان لم نعد نلتفت إليها . لأن اللغة الحية تتفاعل مع المجتمع ، وتتغير بتغيره . أما إذا كانت لغة خاصة بالكهنة ، تتلى فقط في المعابد ، فالتفاعل ينعدم . والكلمات عندئذ تتحجر ، أي تحتفظ بمعانيها على يدي المئات أو الألوف من السنين . ومثل هذه اللغة تعد في القيمة الأجتماعية صفراً

فاللغة الحية تتفاعل مع المجتمع ، فتنحط بأنحطاطه ، وترتقي بأرتقائه . أي أنها تتطور . وهي حين تتطور ينشأ بينها وبين المجتمع أتصال فسيولوجي ، ووظائف عضوية ، كما بين اليد والذهن ، كلاهما

يخدم الآخر وينتفع به

ولهذا السبب يجب ألا يكون للمجتمع لغتان ، إحداهما كلامية ، أي عامية ، والأخرى مكتوبة ، أي فصحى . كما هي حالنا الآن في مصر وسائر الأقطار العربية . لأن نتيجة هذه الحال ، أن اللغة المكتوبة تنفصل من المجتمع ، فتصبح كأنها لغة الكهان التي لا تتلى إلا في المعابد . وينقطع الأتصال الفسيولوجي بينها وبين المجتمع . ولهذا يجب أن تكون غايتنا توحيد لغتي الكلام والكتابة . فنأخذ من العامية للكتابة ، أكثر ما نستطيع . ونأخذ من الفصحى للكلام ، أكثر ما نستطيع . حتى نصل الى توحيدهما

واللغة الحية هي الجهاز العصبي للمجتمع ، أو الشبكة التلفونية التي يتخاطب ويتفاهم بها أفراده . فأذا عجزت عن تأدية هذا التخاطب والتفاهم ، فهي خرساء . أي بمثابة الشبكة التلفونية المقطوعة أو التالفة . ويجب السرعة في ترميمها

وقد عرفنا هذا الخرس في كثير من شئوننا الثقافية . فأن المسرح مثلاً لم يرتق ، لأننا لم نستطع تأليف الحوار باللغة الفصحى بين أشخاص الدرامة . لأن الكلمة الفصحى ليست « جوية » أي أنها لاتنقل إلينا جو الحديث . لأننا ألفنا أن يكون الحديث باللغة العامية ، فترجمته الى اللغة الفصحى يصدمنا ، ويشعرنا بأن هذه الكلمة ليست في مكانها . أى ليست في جوها الأجتماعي

ولغتنا خرساء (والخرس هنا أوضح وأخطر) من حيث أننا جعلناها مثل لغة الكهان ، جامدة لاتتغير . وكانت نتيجة هذا أن في العالم نحو مئة وعشرين علماً وفناً لا تنطق لغتنا العربية إلا بنحو عشرة أو عشرين منها ، ولكنها خرساء في سائرها

فاللغات الأنجليزية والألمانية والفرنسية وغيرها ، لغات ناطقة في مئة وعشرين علماً وفناً . ولغتنا خرساء في نحو مئة علم وفن . ولهذا السبب نحن جهلاء في جميع هذه العلوم والفنون ، مادمنا قد أقتصرنا على لغتنا . ونحتاج كي نستنير بهذه العلوم والفنون ، الى درس إحدى اللغات الناطقة

فالتفاعل القائم الآن بين لغتنا ومجتمعنا ، ليس تفاعلاً صحيحاً . فأن هناك إنفصالاً يحول دون إيجاد الدورة اللغوية كاملة به . ولذلك حدث المرض من هذا الأنفصال ، وهو الجهل لنحو مئة علم وفن لا يمكن أن نعرفها إلا إذا تركنا لغتنا ونطقنا بلغة أخرى

ثم أعتبار آخر يجب أن نلتفت إليه . وهو أننا ورثنا كلمات ، كانت قبل ألف سنة تعبر عن حاجات المجتمع العربي في بغداد أو مصر أو دمشق . وهذا المجتمع كان أتوقراطياً أرستقراطياً . فورثنا كلماته الأتوقراطية الأرستقراطية ، مع أننا نحاول أن نكون مجتمعاً ديمقراطياً. ونحن نتأثر بهذه الكلمات ، ونستضر بها ، لأنها توجهنا الى غير ما نحب من الوجهات . كما تغرس في شبابنا عواطف نكره أن نراها في

القرن العشرين . فأنظر مثلاً الي إيحاء كلمة وزير في مصر ، بجانب إيحاء كلمة سكرتير في بريطانيا أو الولايات المتحدة . وأنظر الى إيحاء عبارات : صاحب الدولة . صاحب السعادة . صاحب العزة فأنها جميعاً عبارات تفتت العقائد الديمقراطية التي تقول بالمساواة الأجتماعية . أو أنظر الى كلمة «حضرة» التي لايمكن ترجمتها الى أي لغة أوربية (ولكن يمكن ترجمتها الى اللغة الصينية القديمة)

ثم أنظر الى ماورثنا من المجتمع العربي القديم بشأن المرأة . فإنه ألغى هذا المجتمع المرأة من الحياة الأجتماعية إلغاء يكاد يكون تاماً أما نحن فقد « رددنا الأعتبار » للمرأة المصرية . ولكن مازلنا نستعمل الكلمات القديمة ، فنقول « أم فلان » أو « حرم فلان » ، و لا نذكر الأسم . مع أن الأسم جزء من الشخصية ، وإهماله هو سبة للمرأة ألا ترى كيف أن أحدنا يغتاظ إذا أخطأ أحد في ذكر أسمه فقال « على حسين » بدلاً من الأسم الحقيقي « حسين على »؟ وهذا لأن كلاً منهم يحس أن أسمه من كرامته ، وهو بعض شخصيته . وإهمالنا لأسم المرأة هو تراث لغوي قديم ، يحمل إلينا عقيدة أجتماعية يجب أن نكافحها

فيجب أن نؤلف بين المجتمع ولغته . فنجعل اللغة ديمقراطية ، إن شئنا أن نكون مجتمعاً ديمقراطياً

الأحافير اللغوية

أحافير الحيوان والنبات ، هي الأجسام المتحجرة التي مضى عليها الألوف أو ملايين السنين . ونحن نستخرجها من باطن الأرض ، وتحفظها في المتاحف ، كي نعرف منها تطور الحياة . ولا يمكن أن نرد الحياة الى هذه الأحافير ، لأن الحياة قد أبادتها وأرتقت عليها ، وأخرجت لنا أنواعاً أخرى . وهذه الأحافير كانت في يوم ما من تاريخ الأرض حية ، ولكن سنة التطور قضت عليها بالأنقراض

وفي اللغات أحافير من الكلمات التي لا تجري على لسان أو قلم ، ولكن المعاجم تحتفظ بها للدراسة ، كما تحتفظ المتاحف بأحافير الدينصور أو غيره . فإذا عمد كاتب الى إستخراجها وبعث الحياة فيها، فأنه لن يصل من هذا المجهود إلا الى تكليف المجتمع عبثاً لا ينتفع به

فالإنسان القديم كان يعتقد أن عالمه حافل بالآلهة والأرواح الطاهرة والنجسة ، وأن حياته مدبرة بها للخير أو الشر . وكان ينشد حظه في النجوم والكواكب . ويتيمن بحركة الطير ، أو يتشاءم بها . وكان راضياً بهذا العالم ، يجد فيه منطقاً للسلوك الحسن . فكان يستعمل الكلمات التي تؤدي له هذه المعاني . وقد نبذنا نحن هذه العقائد ، ولكن بقيت هذه الكلمات الغيبية القديمة التي نستعملها فتفسد أذهاننا . حتى أننا من وقت لآخر ، نقرأ عمن يخاطبون الأرواح ، أو يقرأون

طالعنا في النجوم. وما زلنا نتفاءل أو نتشاءم من حادث أو كلمة . ومازال للعفاريت والجن والنجوم ، سلطان على بعض النفوس التي لاتستطيع أن تتخلص من هذه الأحافير اللغوية . ذلك لأن الطفل ينشأ وهو يستمع الى الكلمات ، فتغرس فيه عقائد ، يعجز عن التخلص منها حتى وهو فى الخمسين أو الستين من عمره

وأحياناً نجد رجلاً ممتازاً في العلوم التجريبية . قد درب ذهنه على تحري الحقائق المادية ، ينزع الى الإيمان ببعض الغيبيات ، وكل ماعنده كلمة مثل «روح» يحملها ويجري بها وراء المشعوذين ، الذين يبحثون له عنها تحت المائدة أو على ألسنة الدجاجلة الذين يستغلون تصديقه . وهو إنما ينزع الى هذه الغيبيات بفضل كلمة أو كلمات تعلمها في الصغر ، فغرست فيه عادات ذهنية لم يعد قادراً على التخلص منها

ولكن الأحافير اللغوية لا تقتصر على ما ورثنا من كلمات ، مثل الجن أو العفاريت أو الأرواح . فأنها تتسرب الى لغتنا المألوفة ، حتى لنقول «علا نجمه » أو « أفل نجمه » أو نحو ذلك . ونحتاج الى شرح مسهب كي ننقل المعنى العصري لصبياننا بهذه التعابير القديمة التي كانت حية أيام الفراعنة أو البابليين . وما دمنا نشرحها الشرح العلمي، ونبين للصبي أن العقيدة القديمة كانت مخطأة . وأننا لا نرمي من هذا التعبير إلا الى معنى النجاح والرقي أو العكس ، فأن كل الضرر ينحصر عندئذ فيما نتكلف من شرح . ولكن قد يكون لهذا التعبير مع

ذلك فائدة للصبي ، حين يعرف منه عقائد القدماء البائدة

ولكن هناك أحافير لغوية كبيرة الضرر على مجتمعنا . ومن أسوأها في مصر في عصرنا هاتان الكلمتان : « شرق وغرب » . فان كلمة شرق توحي إلينا أننا بشر ننتمي الى آسيا وأفريقيا ، وكأننا على عداء مع أوربا وأمريكا . ولما كان الأوربيون والأمريكيون هم المتمدنون السائدون في العالم ، فإن عداءنا يغرس في نفوسنا كراهية للتمدن وعادات المتمدنين . ومعظم المقاومة التي للقبعة ، بل كلها تقريباً ، يرجع الى هذه الكلمة « شرق ». لأن المصري يحس أن الشخصية القومية الشرقية تنهار بأتخاذ القبعة ، التي تمتاز بها الشخصية القومية الغربية

وكلمات الغيبيات توحي عقائد غيبية تعين للمؤمن بها سلوكاً يتنافى مع المنطق ، ويؤخر عن تحقيق النجاح . وكثيراً ما يقعد أحدنا في الترام ، فيجد جاره وهو يتلو كلمات غيبية ، يريد أن يحقق بها غاية أجتماعية أو أقتصادية . فبدلاً من أن يعمد الى المنطق ، فيدبر الوسائل المادية والشخصية ، يتلو هذه الكلمات ، وكأنه (كما كان يفعل البابليون) يستوحي النجاح من النجوم والكواكب

ومن الأحافير اللغوية كلمات « الدم » و « الثأر » و « العرض » في بعض مديريات الصعيد . فأن هذه الكلمات تؤدي الى قتل نحو ثلاثمئة إمرأة ورجل كل عام . ولابد أن بعض القراء سيثب الى القول

بأن هؤلاء القتلة يذودون عن شرفهم . وكل ما أستطيع أن أرد به هو أن سكان الوجه البحري لا يقتلون مثل هذا العدد من الرجال والنساء لأجل «العرض » و « الثأر » . فإما أن السبب أنهم لايستعملون هاتين الكلمتين في حديثهم ، كما يفعل أهل الصعيد ، وإما أنهم أقل إجراماً بطبيعتهم . والفرض الأول هو المعقول

وهناك أحافير لغوية كثيرة في الشعر العربي القديم . فأن الشاعر كان يعيش في جو تلائمه كلمات معينة . فلما أنقطعت الصلة بيننا وبين هذا الجو ، صرنا نجد هذه الكلمات غريبة عن أذهاننا وقلوبنا . فهي لا تضيء بصيرتنا ، ولا تنبه ذكاءنا ، ولاتحرك خيالنا . أنظر مثلاً الى «الحداء » وكيف أتصلت معاني الفعل من هذه الكلمة بكثير من الشعر والنثر ، وأدت الخدمة الأدبية في التعبير الحسن قبل ألف سنة . ولكن من يحاول أستعمالها في عصرنا ، إنما يستعمل كلمة من الأحافير اللغوية التي يجب أن يجد مندوحة عنها في إستعارات وعادات عصرية تلابس مجتمعنا

واللغة التي تلابس مجتمعنا ، هي لغة السوق والبورصة ، والمكتب والمصنع والنادي والبيت ، والكتاب والجريدة والمجلة ، والمنبر والمدرسة . أما إذا أنفصلت ، وأقتصرت على الكتاب ، وهجرت المجتمع ، فصار لنا لغتان ، فأن لغة المجتمع ستبقى حية ، ولكن لاتجد العناية التي يستحقها الحي . فهي تعيش في وكس وضعف . وتبقى اللغة الأخرى

كأنها أحافير تحفظ وتصان ، كما تصان لغة الكهنة في المعابد عند المتوحشين

ضرر اللغة

كانت ولاتزال اللغة ، من أعظم الميزات البشرية . لأنها جعلت التفاهم والتفكير ممكنين . بل جعلت الثقافة تُختزن وتُورث من جيل إلى آخر . ولكننا نجد أن اللغة كثيراً ما تحيل التفاهم إلى إلتباس ، فيسيئ بعضنا إلى بعض ، لأنه يجهل الغاية من كلامه . وكلنا يعرف ظروفاً مرت به ، حين كان في حوار مع آخرين ، فكان يضطر إلى أن يسأل : ماذا تقصد بهذه الكلمة ؟

وهذا السؤال يدل على أن الكلمات تلتبس ، بل تلتغز ، معانيها بين شخص وآخر . وأنها لهذا السبب لاتؤدي الغاية الأولى منها ، وهي الفهم والتفاهم . واللغة الحسنة هي التي يقل فيها الألتباس أو ينعدم ، لأن لكل كلمة معنى معيناً لا يتجاوزه ، ولا يتسع لهوامش ، تحمل الشك أو الغموض أو الزيادة أو النقص . كما هي الحال في كلمات كثيرة مائعة ، تسيل على الجوانب ، ولا تثبت في نقطة بؤرية

واللغة ، بما ورثت من عادات ذهنية قديمة كانت شائعة قبل آلاف السنين ، قد حملت إلينا من المعاني مالم نعد فى حاجة إليه . بل نحن نستضر به . أنظر مثلا إلى السباب الديني في كلمتي كافر ونجس . فهاتان كلمتان قد ورثناهما من عصر كانت العقيدة فيه أساس السلوك. ولم يكن الناس يستوون في الحقوق ، لأنهم كانوا يختلفون في العقيدة.

ونحن نعيش الآن في عصر نقول فيه بالمساواة بين جميع الناس ، بصرف النظر عن عقائدهم ، ونطالبهم بأن يجعلوا المنطق مرشداً لحياتهم . ولكن هاتين الكلمتين تحدثان أنفعالاً يسيء إلى السلوك العام في أية أمة . ونحن حين نسمي إنساناً « كافراً » نحرك عاطفة خسيسة للكراهة ، كما نفعل حين نسمي سمكة « ثعباناً » ونحمل الناس على كراهتها

فهنا ضرر اللغة واضح . فأننا إذا دخلنا معملاً كيماوياً وجمعنا فيه نحو عشرين شخصاً من سلالات وشعوب مختلفة ، وحاولنا أن نميز بتجارب علمية دقيقة بين الكافر والمؤمن ، والنجس والطاهر ، لما أستطعنا . بل أنا لنجد بالعلم أنهم (كما يقول أسقف برمنجهام في ظرف مشابه) سواء

وقل مثل هذا في كثير من الكلمات التي تحمل شحنات عاطفية سيئة . فأنها كثيرة في كل لغة . ونحن حين نحاول التفكير بالمنطق والتعقل في أي موضوع ، نجد هذه الكلمات تعترضنا ، وتسد علينا السبيل دون التفكير الناجح

ومن أضرار اللغة (وخاصة في لغتنا العربية) هذه المترادفات التي تبعثر المعاني ، وتبعدنا عن الإحكام في التعبير . ويجب أن يكون من قواعد التعليم للبلاغة الجديدة ، لهذا السبب ، محاسبة التلميذ في إنشائه على الكلمة الزائدة ، كما نحاسبه على الخطأ الذي يقع فيه حين يرفع مفعولاً أو ينصب فاعلاً

ولذلك يجب أن يكون المنطق أساس البلاغة الجديدة ، وأن تكون مخاطبة العقل غاية المنشيء بدلاً من مخاطبته العواطف . والبلاغة بفنونها المختلفة ، كما هي الآن في لغتنا العربية ، تخاطب العواطف دون العقل . وهذا ضرر عظيم . فأننا حين ننصح لأحد الشبان بأن يسلك السلوك الحسن في الدنيا ، ويتخذ أسلوباً ناجعاً في الحياة نشير عليه بأن يجعل العقل والمنطق ، دون العاطفة والأنفعال ، هدفه ووسيلته في كل ما يعمل . ولكن البلاغة العربية في حالها الحاضرة هي بلاغة الأنفعال والعاطفة فقط

وإذا جعلنا المنطق أساس البلاغة ، فإننا عندئذ نجعل قواعد المنطق ونظريات إقليدس مما يدرس للتفكير الحسن . وهو الغاية الأولى للبلاغة . ونبين قيمة الأرقام في التفكير الحسن . ثم تأتي بعد ذلك الفنون ، وهي عاطفية أنفعالية ، للترفيه الذهني . ولكن يجب أن نذكر أن التفكير الدقيق بالمنطق ، أخطر وأثمن من الترفيه الذهني بالفنون

وإذا جعلنا المنطق أساس البلاغة ، فأننا سنبحث الكلمات من حيث معانيها . ونبين كيف أن الناس كثيراً ما يخلطون بين الشيء وأسمه . وأن هذا الخلط يشقيهم ، لأنه يبعدهم عن التفكير الناجع ، ويؤخر نجاحهم ، ويعطل المجتمع عن الرقي

كنت في الريف ، فوجدت الفلاحين يذكرون كلمة «وريتة» ويقصدون منها إلى ثلاثة أشياء مكروهة : وهي البومة ، لأنهم يتشاءمون منها .

وأبن عرس ، لأنه يفترس الفراخ . والحمى ، لأنها تمرضهم . فهنا ثلاث كلمات : البومة ، وأبن عرس ، والحمى ، قد أختلطت على الفلاحين أسماؤها ، فصارت في أذهانهم مسميات . كأن الحمى ليست من جراثيم حية تدخل الجسم وتأكل خلاياه ، بل هي « ح م ى ». وكذلك لم يعد أبن عرس حيواناً يحتاج إلى أن ننصب له الشراك كي نوقعه ، بل هو كلمة تحدث ضرراً إذا لفظناها . وكذلك حملت البومة شحنة عاطفية تتصل بالسحر القديم ، فإذا ذكرنا الكلمة فقد هيأنا الجو للخراب . ولذلك يجب في عرف الفلاحين أن نقاطع هذه الكلمات الثلاث ، ونقول بدلاً منها « وريتة »

وهذا المثل على سذاجته يجب أن ينبهنا إلى علاقتنا باللغة . فأننا كثيراً ما نخلط بين المسمى والأسم . وإذا كنا لا نتشاءم بالبومة ، ولانقول «غراب البين»، فأننا نضفي على بعض الكلمات مثل «الأشتراكية» معاني مكروهة . حتى أن بعض الحكومات كانت تمنع ذكرها في الصحف والكتب . ولكنها مع هذا المنع ، لم تخترع كلمة مثل « وريتة» ، كما أخترع الفلاحون حين أرادوا التعبير عن الحمى وأبن عرس والبومة

وما يقال عن الكلمات المكروهة ، يقال أيضاً عن الكلمات المحبوبة . فأننا كثيراً ما نُخَدع بكلمات لها بريق أو رنين أو ضجيج . وكثيراً ما ننسى أن الكلمة ليست هي الشيء،وإنما هي رمز للشيء

على أن البلاغة القديمة ، بلاغة الأنفعال والعاطفة ، يمكن أن نستخدمها للتوجيه الأجتماعي في الأمة . ولكن مع الحذر من أن يعود هذا التوجيه إدعاية سيئة لأحد المذاهب الضارة

ضور اللغة أيضاً

اللغة الحسنة هي التي ، حين نعبر بها ، نحس السيادة المنطقية على كلماتها . فلا نشعر أنه كان يجب أن نزيد هنا أو ننقص هناك . أو أن معنى الكلمة التي أستعملناها قد يحمل القاريء على أن يفهم ما قصدناه . وبكلمة أخرى نقول ، إن اللغة الحسنة هي تلك التي تتيح لنا التفكير المنطقي ، كما لو كانت كلماتها أرقاماً تؤدي لنا الحساب الذي لايحمل حاصل الجمع أو الطرح فيه معنى الشك . أو على الأقل يجب أن تقارب هذه الحال من الدقة على قدر الإمكان

والواقع أن العلوم لاتنضج إلا حين تقاس بالأرقام ، وتعبر الأعداد عن حقائقها . ولا يزال كثير من علمي السيكلوجية والأجتماع بعيداً عن إمكان التعبير عنه بالأرقام . ولذلك تنقص قيمتهما بقدر هذا العجز عن أستخدام الأرقام في شرحهما وفهمهما

ونحن في مصر تسيء إلى اللغة العربية وإلى شبابنا أيضاً ، حين نتخذ معهم طرقاً عتيقة في معالجتها ، يمكن تلخيصها فيما يلي :

١- أننا نعلمهم مباديء البلاغة العاطفية بالمجاز والأستعارة والتشبيه الخ ، كي يصلوا منها إلى التعبير الفني أو الرفاهية الذهنية . بدلاً من مبادئ البلاغة العقلية بقواعد المنطق ، حتى يصلوا إلى دقة التعبير وتوقي الألتباس . والنتيجة من هذه البلاغة العاطفية هي

الضرر، لأنها تحدث لهم إتجاهاً نحو التزاويق والبهارج . فإذا طلب إليهم التفكير عجزوا

٢- هذه البلاغة العاطفية قد حملت المعلمين على الإكبار من شأن الأقتباس . حتى أننا كثيراً ما نرى في كتب الأنشاء التي يتداولها التلاميذ ، عناية المؤلفين بما يسمونه « الجمل المختارة » . وهي عبارات تحتوي كلمات لها بريق أو رنين أو ضجيج . والتلميذ الذي يكلف أستظهارها ، إنما يفعل ذلك على حساب تفكيره . فكأننا نقول له : لاتنظر إلى هذه الدنيا بروح الباحث المتفهم المفكر ، وإنما أستظهر العبارات المزخرفة ، وتكلف التزاويق ، لأنها أحسن ما يمكنك أن تعبر به في الأنشاء

ونحن في هذا التوجيه نحمله على العناية بالقشور ، بل بما هو أتفه منها . وترك اللباب ، أي التفكير السديد

٣- وضرر ثالث هو أيضاً نتيجة ما ذكرناه ، نعني به العناية بالأسلوب ، ومحاولة التلميذ أو الطالب أن يتعلم أساليب المتقدمين ويحاكي أحسنها . وكأنها غاية الإنشاء

ونحن في كل هذا ، نكاد نجحد الذهن . وعندما يشب هؤلاء الشبان يتجهون ، إذا ألفوا كتاباً أو كتبوا في صحيفة ، وجهة الأقتباس والتزويق ، دون التفكير والبحث . وهذا ما نراه شائعاً في كتبنا ومجلاتنا. بل أحياناً نجد المصري المتعلم ، الذي درس في أوربا

وأصطنع المنطق العلمي في تفكيره ، عاجزاً عن التأليف في اللغة العربية . لأنه يجهل الأقتباس والتزويق . ولذلك يحجم عن التأليف ، فنحرم ثقافته مع حاجتنا العظيمة إليها

فكيف نعالج هذه الحال ؟

١- نعالجها أولاً وقبل كل شيء ، بأن نجعل قواعد المنطق تقوم مقام قواعد البلاغة القديمة . أي دقة التعبير ، بدلاً من تزويق التعبير . ومخاطبة العقل ، بدلاً من مخاطبة العواطف

٢- ونعالجها ثانياً بأن نقاطع الأقتباس غي الأنشاء في المدارس الأبتدائية والثانوية . ونجعل التفكير يقوم مقام الأقتباس . فيجب ألا تكون هناك « جملة مختارة » تحفظ عن ظهر قلب . بل يجب أن يعوّد الصبي أو الشاب كيف يفكر ويبحث ويطلع

٣- يجب أن نعرف أن الأسلوب هو الناحية الأخلاقية للكاتب . فإذا كان الكاتب فناناً يعيش الحياة الفنية ، وينظر إلى الدنيا من خلال العدسة الفنية ، فأسلوبه فني . وإذا كان عالماً ، فأسلوبه علمي . وإذا كان إجتماعياً الخ

وأسلوب الكتابة هو بعض أسلوب الحياة . فالرجل المستقيم الصريح في معاملاته، يكتب في عبارة صريحة ، وفي كلمات لا تقبل الإلتواء. فإذا طالبنا الصبي أو الشاب بأن يحسن الأسلوب في كتابته ، فإنما نطالبه في الحقيقة ، بأن يتخذ أسلوباً حسناً في معيشته ، وأن يرقي

شخصيته . وإذا أستقرت هذه القواعد في مدارسنا ، وتعلمها صبياننا وشبابنا ، فإننا سنجد عندئذ المؤلفين المفكرين ، والصحافة النيرة المرشدة . صحافة الشخصيات الكبيرة ، والتفكير العلمي الدقيق

اللغة والجنون والإجرام

لا أقرأ جريدة الصباح، حتى أجد جريمة أو جريمتين مرجعها إلى اللغة وسأحاول هنا معالجة هذا الموضوع ، الذي على ما يبدو عليه من اللون الفلسفي ، وعلى ما سيجد فيه القاريء من عمق ، سيرتاح في النهاية إلى الأستنتاجات التي سنصل إليها . وهي جد خطيرة في مجتمعنا المصري الحاضر

وهو بلا شك بحث فلسفي . ولكن في عصرنا الديمقراطي ، يجب أن يكون الأدب والفن والفلسفة للشعب ، بل لعامة الشعب ، التي على كل منا أن يعلمها ويرفعها . وقد قال سارتر زعيم الوجودية : « إن الفلسفة يجب أن تنزل عن أريكتها ، وتدخل في السوق »

وموضوعنا بأخصر عبارة ، هو أن كلماتنا التي نتحدث بها ونقرأها ، تعين أخلاقنا وسلوكنا الأجتماعي . فنحن فضلاء أو أرذال باللغة . ونحن عقلاء أو مجانين باللغة . كما نحن علماء أو جهلاء باللغة

أعتبر ، أيها القاريء ، شاباً ريفياً في مديريات سوهاج أو قنا أو أسيوط ، قد نشأ وتربى وسمع بأذنه ، وتكرر سماعه ، لكلمات الثأر والأنتقام والدم . فأن هذه الكلمات ، حين ينطق بها ، تصور له صوراً فكرية معينة ، وتحمله على أن يسلك السلوك الأجرامي بقتل خصومه لأوهى الأسباب

بل أنه يفهم كلمات الشرف والعرض والسمعة ، على غير ما يفهم الشاب في القاهرة أو الاسكندرية . ولذلك ما هو أن يرى أخته تتحدث إلى أحد الشبان ، حتى تستطير هذه الكلمات عقله وتلهب عاطفته فيجمع إلى معانيها معاني الكلمات الأخرى : الدم والثأر والأنتقام ثم يكون قتل الأخت

كلمات تؤدي إلى جرائم

ولا يمكن أن نقول إن جرائم العرض في قنا وجرجا وأسيوط أكثر مما هي في القاهرة أو الأسكندرية . ولكن جرائم الدفاع عن العرض أكثر لأن هذه الكلمات ، أي الثأر والدم والأنتقام ، مألوفة في الصعيد أكثر مما هي مألوفة بين سكان الوجه البحري والقاهرة

جرائم الدفاع عن العرض ، التي تذكر لنا صحفنا كل يوم جريمة أو أثنتين منها ، هي جرائم لغوية لا أكثر . إما لوجود كلمة كان لايصح أن توجد ، وإما بتحميلها معنى كان يجب ألا تحمله

أو أعتبر كلمتي الحسد والشماتة ، فأنهما تبعثان في النفس أسوأ الأحساسات . وكنا نكون أطيب قلوباً لو أننا لم نتعلمها . بل هناك من الكلمات البذيئة التي نسمعها من صغار الباعة الجائلين ، ومن أمثال الحشاشين ، مما يتصل بالشئون الجنسية ، ما يعين لنا سلوكاً أو اتجاهاً جنسياً . لأن الكلمة إيحاء ، مهما ظننت أنك خلو منه ، فأنك تحسه ، من حيث لاتدري . إذ هو يتصل بعاطفتك

الكلمة فكرة ، والفكرة إحساس . وقد يحتد الأحساس ، فيصير عاطفة . بل عاطفة جنونية

وأنا الآن أدلك ، أيها القاريء ، على حوادث من الجنون تتكرر في مصر بسبب اللغة

أعتبر سيدة أنيقة جميلة ، تعنى بهندامها وتعجب بقامتها ووجهها ، قد أقتربت من سن الثامنة والأربعين أو التاسعة والأربعين ، ثم وجدت توعكاً أو توتراً . فلما أستشارت الطبيب ، قال لها : إن حالتها تعد طبيعية في سنها ، سن اليأس

يأس ؟ من منا يسمع هذه الكلمة ولا يضطرب ؟

الواقع أن جميع نسائنا يضطربن لهذه الكلمة . وقد يزيد الأضطراب ، بسبب الضرة أو الحماة أو الخوف من الطلاق ، فيصير جنوناً . أو على الأقل شذوذاً يلفت النظر . ويحتاج إلى العلاج

ولو أننا أستبدلنا بكلمتي سن اليأس سن الحكمة ، أو سن النضج ، لكان لهذا المعنى الإنساني توجيه آخر نحو الأمل والنشاط . ولكان منه سبب لسعادة نسائنا بدلاً من شقائهن

وأستطيع أن أزيد في أمثلة الجنون أو الشذوذ الذي ينشأ من الكلمات السيئة . وخاصة من تلك الكلمات التي تتصل بالعلاقات الجنسية ، والتي تعين لنا أسماء (أي معاني) بذيئة لأعضاء الخلود البشري . لأننا حين نصف الأعضاء بالنجاسة ، أو نسميها « سوأة» ،

إنما تصم التعارف الجنسي بأسوأ الوصمات ، وتجعل منه جريمة مستترة . وتحيل أشرف عاطفة بين الزوجين إلى دنس وخسة وعيب . وعندئذ يصطبغ الأتصال الزوجي بكل هذه المعاني

وقد كنت أقرأ كتاباً بعنوان « صائدو الرءوس » لمؤلفه ألفريد هادون. والكتاب يصف قبائل من المتوحشين في غينيا الجديدة ، ينتظم مجتمعهم على مراتب من الشرف والمروءة والشهامة ، تحتاج لبلوغها إلى أن يصيد الإنسان إنساناً آخر ويقطع رأسه . وعلى قدر ما يعلق من رءوس في كوخه ، يكون شرفه وشهامته ومروءته

وأعظم ما لفتني في هذا البحث ، أن هناك عند هذه القبائل كلمات تحمل دلالات الشرف والشهامة والمروءة ، وتتصل بالقتل ، وفصل الرأس من البدن ، وتعليقه للفخر

وهؤلاء المساكين ينشأون على هذه الكلمات ، ويفكرون وفق الصور التى ترسمها لهم . ثم ينفعلون بالشرف والشهامة والمروءة ، فيغتالون خصومهم أو غير خصومهم . كما يفعل الشاب الريفي عندنا في جرجا وقنا وأسيوط عندما يذكر كلمات الدم والأنتقام والثأر ، فيقتل ، ويظن أنه شهم شريف

وعلى قدر كلمات الفضائل في لغتنا ، نكون فضلاء

وعلى قدر كلمات الرذائل في لغتنا ، نكون أرذالاً

وعلى قدر المنطق في كلماتنا ، نكون منطقيين في سلوكنا

وعلى قدر الخبال في كلماتنا ، نكون مخبولين في سلوكنا

وأحب أن أكرر ، أن الكلمات أفكار . وأننا لانستطيع أن نفكر بلا كلمات ، أو ما يقوم مقامها من إيماءات باليد أو العين أو نحو ذلك

وهناك حقيقتان سيكلوجيتان . الأولى هي قوة الكلمة المتكررة في الأيحاء . فأننا نستطيع أن نحدث إيحاء لشخص آخر ، أو لأنفسنا ، بكلمة مكررة تحمل معنى أو توجيهاً . وهذا هو التنويم النفسي الذي يحمل النائم على أن يسلك سلوكاً معيناً . فإذا تكررت كلمات الدم والثأر والأنتقام ، أحدثت الإيحاء ثم الأجرام . ومعظم سلوكنا ، بل ربما كله ، يعود إلى الكلمات التي تعودناها منذ الطفولة

والحقيقة الثانية أن الكلمة المنيرة ، أي التي تنير العقل بالمنطق أو القلب بالبر والشرف والمروءة ، هذه الكلمة تمسح عن العقل النائم المضطرب غشاوة . ولذلك نحن نطلب من المريض أن يشرح ، بالكلمات، تاريخ مرضه ، ويحاول تعليله . وكثيراً ما يُشفى بمحض القوة المنيرة الأنسانية التي في الكلمات التي يستعملها ، لأنه بأستعمالها قد حدد مرضه ، وعين أماراته وأسبابه

وكثيراً ما ألاحظ أن شيخوخة العقل تبدو مبكرة عند المسنين من الأميين ، ولكنها تتأخر أو لا تبدو بتاتاً عند المتعلمين المثقفين . وعلة ذلك تتضح مما شرحنا هنا . وهو أن الأفكار كلمات . وما دام المسن يعرف الكلمات ، فأن عقله يحتشد بالأفكار ، فلا يكون هناك مجال

للخلط أو الخوف أو النسيان

ومن هذا البحث المؤاجز ، نعرف أيضاً أن أعظم ما تحتاج اليه أمة ما، كي يرتقي مجتمعها وتنقص أمراضها وجرائمها ، وكي يسلك أبناؤها السلوك الأجتماعي الحسن ، أن تعمل لترقية لغتها وتنقيتها ، ووضع الكلمات الجديدة التي تزيد الأحساس بالفضائل

وما أجمل أن نذكر للشعب ، ونكرر الذكر ، لكلمات الحرية والديمقراطية ، بل الديمقراطية الأجتماعية ، والمساواة والإخاء والحب والمروءة والشرف ، والثقافة ، وحق المرأة في الأنسانية ، ونحو ذلك

أنها كلمات يصح أن يكون كل منها برنامجاً للسلوك الأجتماعي السوي ، بل الراقي

الكلمة الموضوعية والكلمة الذاتية

طبيعة الكلمات هي الجمود ، وطبيعة الأشياء التي تعبر عنها هي التغير . فكل شيء في الدنيا ، بل في هذا الكون ، يتغير . والحياة في الحيوان والنبات هي أعظم المظاهر لهذا التغير . وهذا التغير على أقصاه في الأنسان ، لأنه يعيش في مجتمع تتغير به أخلاقه وعاداته وآراؤه

ونحن في تفكيرنا نتخذ أسلوبين : الأسلوب الموضوعي ، حين نتجرد من أحساسنا الشخصي ، أو لانجد له مجالاً . كما لو قلنا : كرسي أو أسد أو شمس أو شارع . فكلنا على وجه التقريب يذكر هذه الأسماء دون أي انفعال . وكلنا سواء تقريباً في إدراك صورها . ولذلك إذا كنا في حوار ، وذكر أحدنا الشمس أو الكرسي ، لم يحتج الآخر إلى أن يسأله : ماذا تعني ؟ لأن المعنى واضح

وهذه الكلمات موضوعية ، أي أنها غير متأثرة بذواتنا . والمفكر العلمي يحاول على الدوام الوصول إلى هذا الأسلوب الموضوعي في التفكير . أي أنه حين يبحث مشكلة ، يتجرد من إحساساته وميوله ، وما يحب وما يكره

ولكن هناك الأسلوب الذاتي ، أسلوب الأديب والفنان . فرجل الأدب يتحدث عن المثليات أو الجمال أو الذوق أو العظمة . وهذه الكلمات

جميعها ذاتية ، أي تعبر عن إحساساته وإنفعالاته . ولذلك نختلف فيها كثيراً . فقد يقول أحدنا إن القناعة من فضائل الفلاح . فأرد أنا عليه ولي أنفعالات نفسية : لا . بل هي من رذائله . وقد يستمع أحدنا إلى امرأة تغني فيقول : إن الأغنية حسنة . فيرد آخر بأنها ليست أغنية ، وإنما هي أغنوجة

ومن هنا نفهم أن الغناء والقناعة كلمتان ذاتيتان ، نختلف فيهما كثيراً . أما الكرسي والشارع ، فكلمتان موضوعيتان ، لا علاقة لهما بأنفعالاتنا وإحساساتنا . ولذلك لا نختلف فيهما

فحين أسمع أحدهم يقول : « امرأة جميلة » فأني أفهم كلمة امرأة ولا أختلف معه ، لأن الكلمة موضوعية . ولكنه حين وصفها بالجمال قد تعرض للمناقشة ، لأن الكلمة ذاتية . إذ قد تكون فكرتي عن الجمال غير فكرته

والكاتب الذكي هو الذي يحاول أن يكون علمياً موضوعياً ، وليس عامياً ذاتياً . ولكن يجب أن نذكر أن اللغة ستحتوي على الدوام كلمات ذاتية تعبر عن الآداب والفنون . وهى هنا ليست عامية ، ولكنها تعبر عن ذاتية ممتازة

أنظر مثلاً إلى قول أحدنا : هذا الصبي ذكي

فإن وصف الذكاء هنا قد يكون ذاتياً ، لأن المتكلم ربما وصفه بذلك لأنه أستخف ظله . أو لأن هذا الصبي قد خدمه ، أو لأن المتكلم نفسه

ليس ذكياً . فكلمة « ذكي» هنا ذاتية . ولكن السيكلوجيين أستطاعوا أن يجعلوا هذا المعنى موضوعياً . فهم يقولون : « هذا الصبي يبلغ معدل ذكائه ١٠٧ » وذلك بعد قياس مضبوط

وكلمات الشرف ، والثقافة ، والغباوة ، والفاقة ، والثراء ، والعدل، والشجاعة ، والجمال ، والقناعة ، والتكبر ، والغضب ، والتسامح ، كلها كلمات ذاتية تعبر عن إنفعالاتنا الشخصية أو ظروفنا البيئية . ولا تعبر عن حقائق موضوعية ، مثل الكرسي أو الشارع

والتفكير السديد ينقلنا ، أو يحاول أن ينقلنا ، من النظر الذاتي للأشياء إلى النظر الموضوعي . ومن الوصف المائع العام إلى الوصف بالأرقام . كما رأينا في معدل الذكاء في السيكلوجية . وكثير من الفهم السيء للفلسفة القديمة ، وما يلحق بها من أدب ودين ، يرجع إلى أنها عالجت شئون الدنيا بكلمات ذاتية ، قد أختلفت معانيها بعد مرور ألف أو ألفي سنة

وقد أرتقت الأمم بكلمات ذاتية ، مثل مروءة ، وشرف ، وشهامة ، وحياء ، وأنفة . كما أنحطت بكلمات ذاتية أخرى ، مثل شماتة ، وكفر، ونجاسة . ولكن إذا صرفنا النظر عن الأرتقاء والأنحطاط ، فإننا نجد أن الكلمات الذاتية كثيراً ما تبعث على الألتباس والفهم السيء . ومن هنا الأختلاف الدائم في الدين والفلسفة والآداب والفنون ، والأتفاق

التام في العلم . لأن كلمات العلم موضوعية ، ولذلك أسلوب التفكير فيه موضوعي

إحدى الكلمات

لغتنا تستوي وسائر اللغات العصرية ، في نقص التعبير عن المعاني الذاتية . وهذا النقص سوف يبقى ، كما قلنا ، إلى أن نهتدي ، نحن وسائر الأمم ، إلى اللغة العلمية . أي اللغة التي تنقل المعنى من «الذاتية» إلى « الموضوعية »

بدلاً من أن نقول : هذا الصبي ذكي ، نقول : يبلغ ذكاء هذا الصبي ١١٥.

وبدلاً من أن نقول ، كان يوم أمس حاراً مرهقاً ، نقول : بلغت الدرجة المئوية للحرارة أمس ٣٩ .

وقد سبق أن قلنا أيضاً إن العلم لا تنضبط قواعده إلا إذا عُبر عنه بالأرقام . وقد يتساءل القاريء في أسف وأكتئاب : أي دنيا هذه التي يعيش فيها الناس بلغة الأرقام ؟

ولكن يجب أن نذكر أن العالم لايزال في بداية التعبير اللغوي ، وأن الفرق بيننا وبين المتوحشين في اللغة ، إنما هو فرق الدرجة والتفاوت ، وليس فرق النوع والأختلاف . فالمتوحش يعبر عن حاجته بنحو ٥٠٠ كلمة ، ونحن نعبرعنها بنحو ٥٠٠٠ أو ٥٠٠٠٠ . وهو يقول عما زاد على العشرة أنه « كثير » . أي أنه يعبر بكلمة واحدة عن أعداد المئات والألوف والملايين . وربما لايزال متعلقاً بطريقة « الأحصاء» بالحصا ،

كما كنا نحن قبل ألوف السنين . ولكن مع هذا ، لاتزال في لغتنا العربية ولغات الأمم العصرية ، كلمات تعبر عن إحساسات مختلفة ، تتغير معانيها ولا تتغير الكلمة التى تدل عليها . ونحن فى هذا مثل المتوحش ، الذي يسمي ما زاد على العشرة « كثير »

أنظر مثلاً إلى كلمة « أحب »

فالرجل يحب المرأة هذا الحب البيولوچي ، الذي يقصد منه إلى التناسل . والزوج يحب زوجته . وإحساس الزوجين للحب ، يرتفع على المستوى البيولوچى . فهنا أختلاف

ولكن أحدنا يقول إنه يحب الملوخيا . فهل كلمة الحب التي تستعمل للتعبير عن العلاقة بين الرجل والمرأة ، هي نفسها التي يصح أن تستعمل للتعبير عن العلاقة بين الرجل والملوخيا ؟ وهل الأحساس واحد في الحالين ؟

والأنجليز يفصلون بين هذين المعنيين بأستعمال Love للأول و Like للثاني

ألسنا نرى هنا أن كلمة « أحب » كلمة عامة ، تدل على إحساسات مختلفة ، ولكننا نطلقها عليها جميعها ، لأننا كالمتوحش حين يسمي ما زاد على العشرة « كثير » ؟

ثم هناك حب الأم لأطفالها ، ثم حب الأطفال للأم . وكلاهما أيضاً مختلف

ثم حب الإنسان لله . ثم وصية الدين ، بأنه يجب لنا أن نحب بعضنا بعضاً . ثم حبنا للمال . ثم هناك الحب بين الحيوان . بل أن السمكة نفسها لتحب أطفالها وتذود عنها

فهل يصح أن تؤدي كلمة الحب كل هذه المعاني المختلفة ؟ ألا يدل قصور هذه الكلمة ، على قصور اللغات العصرية أرقاها وأدناها . وأننا مازلنا في المرحلة الأولى من التعبير ؟

أجل . إن اللغات جميعها لاتزال في طور التجربة . وستبقى كذلك مادام عقل الأنسان يرتقي ويطلب الوضوح مكان الغموض ، والمعنى الموضوعي مكان المعنى الذاتي . ويكاد أرتقاء السيكلوجية يتوقف على هذا وحده ، أي على تفسير الأحساس الذاتي تفسيراً موضوعياً . ومن هنا الصعوبة الكبرى في ترجمة الشعر والدين والأدب . لأن هذه الثلاثة تتصل بالمعاني الذاتية ، التي يشق على أبناء أمة أجنبية أن يفهموها . لأن البيئة الأجتماعية التي يعيشون فيها قد أختلفت وأحدثت عواطف مغايرة لما كان في البيئة الأصلية ، التي وضع فيها الشعر والدين والأدب

وكلمة « الحب » واحدة من مئات الكلمات الذاتية التي تتسع كل منها لجملة صور . مثل كلمات الفهم ، والجمال ، والألم ، والسرور ، والحزن ، والنشاط ، والكراهة ، والحنان ، والمجد ، والسعادة ، والأيمان، والتعقل ، والوهم ، والغيرة

وهناك كلمات أخر نتوهم منها أنها موضوعية ، ولكنها تحدث لنا إحساسات وأنفعالات ذاتية ، فتلتبس معانيها وتختلف في دلالتها . مثل الديمقراطية والحرية والأتوقراطية والتعصب ، فإنها جميعها تدل على حالات نراها في شعب أو جماعة . وكان يجب أن تكون موضوعية. ولكنا نقحم إحساساتنا الشخصية فيها ، فتعود وكأنها ذاتية

فلو قيل لنا إن الهندوكيين يكرهون البوذيين في الهند ويؤذونهم ، أستطعنا أن نفهم معنى التعصب هنا ، ونحكم حكماً موضوعياً نزيها . وذلك لأننا لسنا هندوكيين أو بوذيين . ولكن عندما يقرأ المسلم تاريخ الحروب الصليبية ، يجد نفسه مختلفاً كل الأختلاف مع القاريء المسيحي . لأن كلا منهما ينظر نظراً ذاتياً لمعنى التعصب

اللغة القديمة واللغة العصرية

كل من يعرف اللغة الأنجليزية ، يدرك الفرق العظيم بين اللغة التي كان يستعملها شكسبير حوالي سنة ١٦٠٠ ، وبين اللغة الأنجليزية الآن . وهذا الفرق هو فرق النمو والتطور . فإن اللغة الأنجليزية لم تجمد وتتحجر ، ولم يلتمس الكتاب « جملاً مختارة » من شكسبير كي يزخرفوا بها إنشاؤهم . بل أخذت اللغة تتميز بالتنفية والتنقية ، حتى أختلفت أختلافاً كبيراً من لغة شكسبير . مع أن المدة بينهما لاتزيد على ٣٤٠ سنة .

ومما يذكر في تطور اللغة الأنجليزية أن الملك چيمس حين زار كنيسة سان پول الكاتدرائية عقب أنتهاء المهندس من بنائها ، عبر عن إعجابه بها بهذه الكلمات « Amusing , Awful , Artificial » . فسر المهندس غاية السرور.ولكن هذه الكلمات قد أنتقلت في عصرنا من معنى الأستحسان إلى معنى الأستقباح والأستهجان والأستهزاء

وهذا هو التطور . وهذا هو الرقي . فإن اللغة الحية التي يستخدمها مجتمع حي ، يجب أن تتطور . ومحاولة تجميد اللغة ، وإلتزام عباراتها القديمة ، وكراهة إيجاد الكلمات الجديدة ، إنما تعني تجميد الأذهان وعرقلتها في التفكير الناجع

حين كنت أحرر في إحدى الجرائد ، كان بها شيخ مصحح يشرف على

اللغة ، ويمنع تسرب الأخطاء . وكان رجلاً طيب القلب ، جامد الذهن ، فكان يعارض في كلمة « ماهية » الموظف ويضرب عليها . ويضع بدلاً منها مرتباً أو أجراً . فكان المخبر الذي كتب الخبر ، يرى عقب طبع الجريدة أن وكيل الوزارة أو رئيس القلم قد زيد « أجره ». فيهرول إلى الشيخ ويصرخ ويهيج . ولكن الشيخ يصر على أن كلمة « ماهية » لم ترد قط في المعاجم بمعنى « أجر » . ولا عبرة بأصطلاح الحكومة على المعنى الجديد لها

وهذا هو النظر الجامد للغة . ولو أن كتاب العرب القدماء كانوا قد ألتزموا هذا الجمود ، لقصرت اللغة في التعبير . ولكن في اللغة العربية أكثر من ثلاثة آلاف كلمة رومانية وإغريقية وفارسية . وهذا زيادة على المعاني الجديدة التي ألحقت بالكلمات القديمة ، فتخصصت الكلمة لمعنى معين بعد أن كانت عامة

وهذا هو ما نفعل نحن الآن . فقد خصصنا :

الدستور للنظام الأساسي للدولة

والصحيفة للجريدة أو المجلة

والغارة لهجوم الطائرات

والعلم للمعارف التي يمكن أمتحانها بالتجربة ، أو ما يساويها في التحقيق

والأذاعة لما يصدر عن المحطات الأشعاعية

والجامعة لمجموعة كليات مستقلة في ثقافتها إلى حد ما . الخ

وبهذا التخصص ، وبإيجاد كلمات جديدة ، مرنت لغتنا بعض المرونة وخدمت مجتمعنا . ولكن مشكلاتنا اللغوية لاتزال كثيرة ، ومازلنا نلتزم عبارات مقتبسة يعافها الذهن الذكي . ومرجع هذه العبارات تلك البلاغة العاطفية الأنفعالية التي تعلمناها ، وغرست في نفوسنا قيمة مزيفة للأستعارة والمجاز

فما زالت صحفنا مثلاً تقول :

عرض على بساط البحث ، بدلاً من ، عرض للبحث

وخاض غمار القتال	« «	قاتل
حمي وطيس القتال	« «	حمي القتال
دارت رحى المعركة	« «	دارت المعركة
وضعت الحرب أوزارها	« «	أنتهت الحرب
لتعزيز أواصر الثقة	« «	لتعزيز الثقة
صب جام غضبه	« «	غضبه
أطلق سراحه	« «	أطلقه
نتجاذب أطراف الحديث	« «	نتحدث

وقل منا من يقول : الحرب الضروس ، أو الموت الزؤام . ولكن العبارات السابقة التي ذكرت ، لاتزال تُرَى كل يوم في جرائدنا ، على الرغم مما فيها من أستعارات ومجازات يمكن أن نستغني عنها . بل

على الرغم من أنها كلمات ، نحتاج إلى مجهود كبير لتفسيرها لصبياننا . مثل : وطيس . أوزار . أواصر . جام . رحى

وفى إستغنائنا عن هذه العبارات أقتصاد ذهني ومادي . ويجب ألا يفهم القاريء أننا نعارض الأستعارة كائنة ما كانت ، ولكننا نعارضها حين يمكن الأستغناء عنها . فيكون الأقتصاد الذهني والمادي ، كما يتضح من الأمثلة التى ذكرنا ، إذ ألغيناها جميعاً ولم ينقص المعنى

وأيضاً حين تعكس لنا مجتمعنا . فإن كلمات الوطيس والجام والرحى ، لا تتصل بمجتمعنا العصري ، كما كانت تتصل بمجتمع العباسيين. وأولى من هذه الكلمات كلماتنا العصرية ، مثل قطار أو موطر أو تليفون الخ

المجتمع العربي القديم

خدمت اللغة العربية مجتمعين عربيين : أولهما المجتمع البدائي ، حين كان العرب قبائل يرحلون وينتجعون . وقد ورثنا نحن من هذا الطور آلاف الكلمات عن الصحاري والإبل والخيل والغزو والخيام . ولكنا لم نرث شيئاً من هذا الطور يتعلق بالزراعة أو الصناعة أو الحكومة . ثم خدمت اللغة مجتمعاً عربياً آخر ، هو المجتمع الحضري . وإذا قلنا « المجتمع الحضري » فأننا نعني مجتمع بغداد ، لأنها كانت بؤرة الثقافة العربية نحو أربعة قرون . وكانت مدن مصر وسوريا والمغرب والأندلس والحجاز تستوحيها وتستمد منها

والمجتمع البدائي الأول لا نكاد ننتفع بتراثه اللغوي . أما المجتمع الحضري الثاني ، فهو رأس المال الذي نستغله ، ونرجع إليه ، ونستمد منه . ولغتنا مازالت هي لغته ، بكلماتها ومعانيها ، مع تغيير قليل في بعض المعاني وزيادات في بعض الكلمات . وقد خدمت اللغة هذا المجتمع الخدمة الصادقة . ولهذا السبب نفسه ، أي لصدق الخدمة التي قامت بها اللغة للمجتمع العربي أيام الأمويين والعباسيين والأتراك ، قد حملت كلماتها إلينا جواً غريباً عنا . ونحن نشعر بهذه الغرابة حين نحاول وصف مجتمعنا ، ونبحث عن الكلمة « الجوية » التي تؤدي معنى نحتاج إليه في السوق والبورصة ، والمكتب والمصنع ، والمداولات

السياسية والحقوق المدنية والعلوم المادية الخ . وحملت إلينا عادات ذهنية مازلنا نستضر بها ، لأنها لم تعد تتفق و حياتنا العصرية . وإليك شرحاً موجزاً

كان المجتمع العربي أرستقراطياً يعيش بكد العامل ، أو بكد العبيد ، كما كان الشأن في أوربا مدة القرون الوسطى . وكان لذلك يحتقر العمل اليدوي . وكانت الطبقة المتوسطة معدومة ، ولذلك لا نستغرب أقتراح أحد الأدباء مدة العباسيين ، ألا يباع الورد للسوقة . لأن هذا الزهر أجل من أن تتناوله يد العامل الخسيس . ولا نستغرب أيضاً أن يكون أوفى الكتب الأدبية التي نعتمد عليها في تفهم المجتمع العربي القديم ، هو كتاب « الأغاني ». وفصوله هي مجالس الأثرياء والخلفاء مع المغنين والمغنيات . وأسم الكتاب وموضوعه ، يدلان على أرستقراطية . الأدب الذي نشأ لخدمة المجتمع العربي الأرستقراطي ، ثم أرستقراطية اللغة التي تعبر عنه

ومجتمعنا الآن ديمقراطي ، أو نحن نحاول أن نجعله كذلك ، وننشد الديمقراطية في الحكومة والعائلة والمدرسة . ولكن التراث اللغوي الأرستقراطي الذي ورثنا من العباسيين ، لا يساعدنا على ذلك

ثم كان هذا المجتمع حربياً . فأن الصراع بين الدولة الرومانية والدولة العربية ، أحال اللغة إلى خدمة الحرب . فزكت الخطابة والشعر ، خطابة الحرب وشعر الحرب . وكثرت كلمات العاطفة والأنفعال (الكلمات

الذاتية) لأن المجتمع العربي كان معسكراً يحتاج رجاله إلى ما يملأ قلوبهم حماسة . وقد ورثنا هذا التراث ، مع أن مجتمعنا سلمي ، يحتاج إلى كلمات السلم ، وليس إلى كلمات الحرب

كان المجتمع العربي القديم يعيش في ظل حكومة أستبدادية ، لم تعرف قط معنى البرلمان أو المجلس البلدي . ولذلك نحن نحمل عبء الكلمات العربية التي خدمت هذا المجتمع الأستبدادي ، ونحاول تحميلها المعاني الديمقراطية الجديدة ، أو نصطنع الكلمات الجديدة مثل « برلمان » لكي تؤدي معنى لم تعرفة الثقافة العربية القديمة

لم يكن المجتمع العربي القديم يعيش على المعارف والمنطق إلا في أقله ، وكان يعيش على العقائد والغيبيات في أكثره . ولذلك يشق علينا في مجتمعنا ، أن نؤدي المعاني للمعارف المادية ، لأن لغتنا حافلة بكلمات الغيبيات والعقائد دون كلمات العلوم الجديدة

والنتيجة لهذه الحالة أننا نجد صعوبات لغوية خطيرة كلما حاولنا معالجة المعارف العصرية . لأن لغتنا قضت شبابها وهي تلابس مجتمعاً أرستقراطياً حربياً عقيدياً ، فكثرت مصادرها اللونية التي تعبر عن حاجات هذا المجتمع ، فكانت لغة الخطابة والشعر والغيبيات ، بل لغة اللهو والأغاني والقتال . ولكنا نحن نختلف عن العباسيين والأمويين من حيث أن حضارتنا قد صارت تنشد الديمقراطية ، وتنهض على الصناعة ، وتعتمد على المعارف والماديات ، دون العقائد والغيبيات

ومن هنا صارت البلاغة القديمة ، بلاغة الإرادة ، تعبر عن شهوات ورغبات . وليست بلاغة المنطق ، التي تعبر عن العقل والذكاء . كما حفلت اللغة برواسب من الكلمات التي لا ننتفع ، بل نستضر بها ، كلما حاولنا تحريك المجتمع . لأن التحريك يعود هنا تعكيراً

الكلاسية داء الأدب العربي

كل لغة تحتاج إلى شيء من الكلاسية ، نعني النزعة التليدية . حين يتصل الأديب بأسلافه من الأدباء ، يتذوق مؤلفاتهم ، وينغمس في أمانيهم ومثلياتهم ، ويقتني بذلك التراث الذهني السابق . وفي كل عصر نجد الكاتب الذي ينزع إلى تليده ، والكاتب الذى ينزع إلى طريفه . وهما ليسا خصمين ، ولكنهما متعارضان . وقد ينتفع أحدهما بالآخر اذا لم يكن الفرق بين الطارف والتليد عظيماً . كما يكون أحياناً أيام الثورات والأنفجارات الأجتماعية . ففي هذه الأيام ، تتقهقر النزعة التقليدية ، وتبرز النزعة التجديدية . ويحدث العكس أيام الأستقرار ، حين تقنع الأمة بالكلاسية ، وتطمئن إلى التقاليد ، بل تتعلق بها ، وتخشى التجديد والتغيير . وبدهي لهذا السبب ، أن الكاتب الذي ينغمس في الكلاسية ، إنما يفعل ذلك لأنه يعيش في بيئة أدبية راضية عن التقاليد كارهة للتجديد . والكلاسية ليست في الواقع شيئاً أكبر أو أصغر من التقاليد الفكرية والأدبية

لما كان ڤولتير في أنجلترا ، ذكر له أحد الناقدين الأنجليز قول شكسبير في رواية هامليت : « فما تحرك فأر » . وأستحسن الناقد هذا التعبير لما فيه من بساطة . ولكن ڤولتير أجابه بقوله : « ماذا تقول؟ أن الجندي يستطيع أن يجيب هذه الإجابة في ثكنته ، ولكن

لايجوز هذا على المسرح أمام أسمى الأشخاص في الأمة ،أولئك الذين يتحدثون بلغة شريفة . ولذلك يجب ألا يجدوا مثل هذه اللغة عندما يستمعون »

وكان ڤولتير هنا كلاسياً تليدياً ، ينشد الفخامة والروعة في الكلمات. وكان قد ترك فرنسا الملوكية الرجعية ، التي يتلألأ فيها عرش لويس الرابع عشر أو الخامس عشر ، تحيط به نجوم من النبلاء والأمراء والسيدات المزينات باللآلي التي جمعت أثمانها من أقوات الملايين من الشعب . عاش ڤولتير في هذا الوسط ، ومع أنه ثار عليه بعد ذلك ، فأنه كان قد تلبس بمزاجه ونزع نزعته . فكان الكاتب التليدي ، كما كان چان چاك روسو الكاتب الطريفي . وأوربا لاتزال إلى الآن في مشكلاتها ومثلياتها ، تستنير بضوء روسو . فهي ثائرة ، متغيرة ، لما تستقر

ولكن أنجلترا التي زارها ڤولتير ، والتي ألف فيها شكسبير ، ولم يأنف من ذكر الفأر في درامة عالية مثل هامليت ، أنجلترا هذه لم تكن رجعية . إذ لم يكن فيها عرش مستبد كالعرش الفرنسي . وكانت قد أستقرت فيها الحرية والبرلمانية بعد قطع رأس تشارلس الأول . ثم كانت الحركة التجارية قد أوجدت فيها طبقة متوسطة طريفية ، يحضر أفرادها دور التمثيل . وكل هذا جعل الوسط الأوربي غير تليدي

وداء اللغة العربية في جميع الأقطار العربية ، هو داء الكلاسية

الرجعية التليدية . وليس هذا الداء جديداً . فإننا نجد أثره مثلاً حين نقرأ عن رفض إحدى قصائد أبي نواس ، وهو المجدد العظيم ، في مباراة أدبية على مانذكر . وكذلك لما دخل جنكيزخان بغداد ألغى كلمات التفخيم التقليدية . وألح في وجوب التبسيط اللغوي . وهنا يقول أبن عرب في كتابه « فاكهة الخلفاء » :

« فكان في المكاتبات .. لا يزيد على وضع أسمه .. من غير مجازات وأستعارات .. وكذلك الأمراء والوزراء .. ولما فرغ من ترتيب هذه القواعد الملعونة ، وخرج بها على خلاف الشريعة الميمونة .. » الخ . الخ

فنحن هنا إزاء رجل مغولي دخل الأقطار العربية ، وليس له فيها تقاليد أجتماعية أو دينية أو أدبية ، فعمد إلى تبسيط اللغة . فلا حضرة ولا جناب كما يقول مؤلف « فاكهة الخلفاء » الذي يحنق إلى درجة أنه يجد في هذا التغيير في اللغة مخالفة « للشريعة الميمونة »

أي أنه لم يختلف هنا مما يقول الدكتور زكي مبارك ، حين ألف كتابه عن « اللغة والدين والتقاليد » ، حيث يرى الأرتباط بين الثلاثة . وحيث يكره ، أشد مايكره ، حرية المرأة . حتى أنه ذكر أنها تستحق الضرب بالحذاء على رأسها ، وأن والده كان يفعل ذلك بزوجاته . وهو هنا ينساق فيما يتوهمه من تقاليد عربية

وحين أسست الحكومة المصرية مدرسة دار العلوم ، وقصرت

الملتحقين بها على المسلمين دون المسيحيين أو اليهود ، إنما نظرت أيضاً هذه النظرة . أي أنها رأت أرتباط اللغة بالدين والتقاليد . فاللغة عند زكي مبارك ، وأبن عرب ، والحكومة المصرية ، ليست لغة الديمقراطية والأتومبيل والتلفزيون ، بل هي لغة القرآن وتقاليد العرب . ولابد أن أبن عرب يفرح ويطرب ، لو أنه بعث في عصرنا ، حين يجد أننا خالفنا چنكيزخان « الذي كان في المكاتب ... لا يزيد على وضع أسمه ... من غير مجازات وأستعارات ». ذلك لأننا نقول الآن صاحب المعالي وصاحب السعادة الخ الخ

وخلاصة القول أن الداء الأصيل في اللغة العربية هو الكلاسية التليدية . وهي لذلك لا تكتسب طريفاً ، لأنها قانعة بتليدها . وهذه حال يجب ألا نرضاها نحن ، لأنها تحول دون أن نكون أمة عصرية

وصاحب المعالي ، وصاحب السعادة ، وضرب المرأة بالحذاء على رأسها ، لن ينجينا من مثل چنكيزخان بأسلوبه العصري

ويستطيع القاريء الذكي أن يرد هنا ، بأنه عندما يتغير الوسط الأقتصادي يتغير الوسط الأجتماعي . أي عندما نصير أمة صناعية ، لابد أن تتغير اللغة ، وتقبل الطريف

وهذا صواب . ولكن قبل ذلك يجب أن نعرف ، لماذا نكره إلغاء الأعراب وتبسيط التعبير (فأر شكسبير) وأصطناع اللغة العامية ، كي نعبر الهوة التي تفصل بين الأدب والشعب، وإتخاذ الخط اللاتيني ، وأيضاً حرية المرأة

الإيحاء الأجتماعي للكلمة

في ١٨٧٠ كانت فرنسا يتسلط عليها الأمبراطور نابليون . وكان مفكروها يكرهون النظام الأمبراطوري ، ويطلبون إلغاء العرش ، وإعادة الجمهورية . فكان مما كتبه الأديب الكبير فلوبير قوله : إن الشعب الفرنسي يتعلق بالإمبراطورية ، لأنه مخدوع بأسم نابليون . أي أن أسم نابليون الأول قد ترك في التاريخ رنيناً ودوياً ، كانا لا يزالان يجدان الصدى في النفس الفرنسية . ولذلك فإن كلمة « نابليون » كانت توحي إلى الشعب حباً وتعلقاً في غير مكانهما . لأن نابليون الثالث لم يكن يستحقهما سنة ١٨٧٠

وفلوبير على حق . فإن للكلمات إيحاء سياسياً أو اجتماعياً أو دينياً . فما هو أن ننطق بالكلمة ، أو تخطر هي ببالنا ، حتى تنطلق طائفة من العواطف تحرك إرادتنا ، وتعين سلوكنا وتفكيرنا . وقد سبق أن قلنا أن كلمات الدم ، والأنتقام ، والثأر ، تحدث ثلثمائة جناية في بعض مديريات الصعيد . كما أن كلمتي شرق وشرقيين ، تحدث بين بعضنا صدوداً عن الحضارة العصرية ، كأننا في حرب مع الأوربيين . وأن هذا الصدود يؤذينا في تطورنا . ولا يزال عندنا من الكلمات والعبارات ما يوحي إلينا إيحاء سيئاً يتعارض مع الروح الديمقراطي الذي نرجو أن نعممه في المجتمع والحكومة والعائلة . ومن ذلك مثلاً

قولنا « أبناء البيوتات » أو «حرم فلان» أو « أم فلان »

ولكل كلمة إيحاؤها الذي يقوى أو يضعف . وكثيراً ما ينعدم التفكير لأنعدام الكلمة . فإن المبشرين الذين عاشوا بين القبائل البدائية أو المتوحشة في أفريقيا السوداء ، كانوا يجدون مشقة عظيمة ، بل أحياناً إستحالة ، في شرح الديانة المسيحية . لأن لغة هذه القبائل لم تكن تحتوي كلمات تدل على الله أو الجنة أو جهنم أو النعمة أو المجد أو الصدق

وكثير من فضائلنا ورذائلنا معاً يرجع إلى الكلمات ، فلو لم تكن هناك كلمتا الصدق والكذب ، لكان من الشاق علينا أن نفهم معنيهما . وكلمة « الشماتة » توحي إلينا أسوأ العواطف

وأعتبر مثلاً ، أيها القاريء ، طبيباً وحشاشاً يتحدث كل منهما عن الأعضاء التناسلية . فالأول يذكر كلمات لا تحرك عاطفته أو تهكمه أو سخريته ، ولكنها تحرك ذهنه . لأنها كلمات يقصد منها إلى المعارف . ولكن الحشاش يذكر كلمات توحي العاطفة الجنسية ، أو التهكم ، أو السخرية . فالموضوع هنا واحد ، ولكن أختلفت معانيه بأختلاف الكلمات التي تستعمل في وصفه . وهنا يجب أن نذكر أن كثيراً من توجسنا من الحب ، وأختلاط الجنسين ، يرجع إلى أننا نستعمل كلمات الحشاشين ، سواء أكانت فصحى أم عامية ، في وصف هذه العلاقات الجنسية ، بدلاً من كلمات العلماء أو المثقفين . ولذلك كلما فكر بعضنا

في الحب ، أو أختلاط الجنسين على الشواطيء ، أو العري ، خطرت بذهنه كلمات توحي البذاء أو العهر ، فيصد ويصرخ في الدعوة إلى أنفصال الجنسين

فأحدنا ، المتعلم المثقف العصري ، حين يفكر في الأستحمام والشواطيء وأختلاط الجنسين ، تخطر بباله هذه الكلمات : الصحو . الأوزون . ڤيتامين . السباحة . هواء البحر المعقم . المؤانسة . الرياضة. النحافة . الرشاقة

وأحدنا الآخر ، غير المتعلم ، أو بالأحرى غير العصري ، تخطر بباله هذه الكلمات : الأرداف . الأكفال . البطن المتعكن . وصدر مثل حق العاج . رَخص . وكلمات أخرى تخطر ببال الحشاشين ، فتؤدي إلى تفكير الحشاشين . ثم إلى الصراخ بالعيب والعار على الشواطيء

والحب نفسه يتكيف بالكلمات التي تستعمل في وصفه أو شرحه بين المحبين . فهو عهر بين الشاب وبغي . وهو كذلك بين الحشاش وزوجته . ولكنه يرتفع إلى الطهر والشرف ، بين المثقفين الذين يستعملون الكلمات السامية المهذبة ، لكل ما يتصل بأعضاء الخلود البشري

والإيحاء الحسن من الكلمات كثير أيضاً . فأنظر إلى قولنا : «الروح الرياضي » وكيف تؤثر هذه العبارة كالسحر ، وتبعث عاطفة حسنة في الشاب حين يجور أو يغضب . وأنظر إلى قولنا : يجب أن تكون جنتلماناً . فإن هذه الكلمة الأنجليزية تجمع من المعاني ما لم

نوفق نحن ولا غيرنا ، مثل الفرنسيين أو الأيطاليين ، إلى ترجمته بإحدى كلماتنا . ولذلك أستعملت في اللغات الثلاث

ولما خرجنا نحن من ظلام القرون الوسطى ، وجدنا من المعاني في اللغات الأوربية ما لم نجد ما يقابله في لغتنا . فأخترعنا الكلمات التي تؤديها . فقلنا : عائلة . وتطور . ووطنية . وشخصية . ودستور . وثقافة . وعالمية . ومسئولية . وأخاء

وهذه الكلمات ، أحاطتنا بجو حسن من التفكير العصري ، يجعلنا نتابع تطورات العالم ونفهم مشكلاته . ولم تكن لهذه الكلمات التي ذكرنا معرفة في لغتنا ، أو كان بعضها معروفاً ، ولكنه لايحمل هذه المعاني العصرية التي نلصقها بها . مثل ثقافة ، وأخاء ، ودستور ، نجدها في المعاجم ، ولكننا لانجد لها معانيها العصرية

وأذكر أيها القاريء الجو السيء الذي يبعث تفكيراً سيئاً في صبياتنا عندما يركبون الترام ، أو يسيرون في الشارع ، فيسمعون الباعة الجائلين يشتم بعضهم بعضاً بذكر الأعضاء التناسلية بكلماتها الفجة . فإن الصبي ينشأ وقد تلبس بالمعاني الفجة التي لهذه الكلمات. وهو عندما يبلغ الشباب ، يجد أن علاقته بالمرأة مكيفة مصوغة إلى مدى بعيد بهذه الكلمات . وهو يشقى بهذا

والصبي حين يقرأ المجلات الأسبوعية ، تعلق بذهنه كلمات من النكات الجنسية ، تعين له السلوك الجنسي في المستقبل أو تؤثر فيه .

ذلك لأن لكل كلمة إيحاءها الذي يندس في العقل الباطن ، ويكون لنا عادات في التفكير والأخلاق . ويجب لهذا السبب أن نحيط أبناءنا بالكلمات المثلى ، التي تبعث التفكير الحسن . كما يجب علينا نحن الكبار ، ألا نستسلم لإيحاء الكلمة ، بل ننظر من خلالها إلى المعاني المختفية التي لاتتفق والحقائق . فنميز بين الكلمة الذاتية وبين الكلمة الموضوعية . وليس هذا بالمجهود اليسير ، وقل منا من ينجح فيه . ومعظمنا ينجح في الكشف عن قليل من الكلمات ، وتحري محتوياتها من غموض أو وضوح ، ومن خير أو شر . ذلك لأننا نتسلم الكلمات منذ الطفولة ، فننشأ على تصديق ما يقول به العرف عنها ، ثم نقبل ما تبعثه فينا من عواطف . فإذا شببنا ، أخذنا غيرها من الكلمات ، وبقدر ما عندنا من ذكاء ناقد ، تكون قدرتنا على التخلص من بعض إيحاءاتها

وذكاؤنا الناقد محدود بالعمر . والكلمات غير محدودة ، إذ هي تراث آلاف السنين

الأقوال أفعال

من الأوصاف المألوفة ، أن نقول عن أحد الزعماء أو الساسة إنه «رجل أقوال وليس رجل أفعال » . وأحياناً نسمع من ينبهنا إلى أن الكلام غير العمل . وقد كان نابليون نفسه يصف الأدباء بأنهم « تجار الكلمات » . ولأبي تمام شطرة من بيت كثيراً ما تذكر ، هى « السيف أصدق أنباء من الكتب »

والواقع أن أبا تمام ، لم يقل كلمة هي أبعد عن الصحة والحقيقة من هذه الشطرة . لأن السيوف لاتتحرك ، إلا للكلام الذي سبقها . والكلام هو القوة الروحية المتسلطة ، والسيف هو القوة المادية الخاضعة . أليس من الواضح أن السيوف ، إنما جردت في حروب العرب والرومان ، لأن كلاً منهما كان يفكر بكلمات تحمل قوات ذهنية وروحية ونفسية ، تختلف مما كانت تحملة الكلمات الأخرى عند الفريق الآخر ؟

ثم أنظر إلى نابليون . لقد ضاع كل ما فتحه بالسيف في أوربا وأفريقيا قبل أن يموت . أما الكلام الذي رتبه في « قانون نابليون» فلا يزال حياً إلى الآن . ولو أن نابليون عني بالكلمات ولم يحتقرها ، لكان إلى جنب سيوفه ومدافعه دعاية لمذهبه الجديد في الحكم ، من حيث أتحاد أوربا ، وإلغاء النظام الأقطاعي . ولكنه أهمل هذه الدعاية ، ولذلك أستطاع أصحاب الكلمات القديمة ، بزعامة مترنيخ أن يفوزوا

عليه . وأن يطفئوا نور العصر الجديد ، إلى حين

ونحن البشر نختلف من الحيوان ، من حيث أن أحسن أعمالنا هو أقوالنا . أي هو كلماتنا التي نعين بها المباديء والمثليات . ولقد فتح الأسكندر الدنيا المعروفة في زمنه ، فما هو أن مات حتى تشتتت . ولكن أستاذه أرسطو طاليس ، رب الكلمات ، لاتزال كلماته حية بعد ٢٢٠٠ سنة من وفاته .

وقد خابت الحرب الكوكبية الأولى ، لأن عدتها من الكلمات كانت أقل من عدتها من السيوف والمدافع . فلما أنتهى عمل السيوف والمدافع ، وهُزمت ألمانيا وجاء السلم ، لم تجد كلمات ولسون الجو الملائم لنموها . فذبلت ، وماتت ، أمام الأعشاب التي زرعها كليمنسو ولويد چورج . ولو أن كلمات ولسون نجحت ، ووصلت إلى قلوب المتمدنين ، ولو أنها كانت قد عُبِّئت بالقوة التي عُبِّئت بها السيوف والمدافع ، لثبت السلم وعم العالم . وما كنا عندئذ لنقع في هذه الحرب الكوكبية الثانية

وقد أحتاج هتلر إلى نحو عشرين سنة ، وهو يعبيء الكلمات ، ويشحنها بشحنات عاطفية قوية ، تحمل الشعب الألماني على التهيؤ الروحي للصراع الذي أبتدأ في أول سبتمبر من سنة ١٩٣٩ . وأنا أكتب الآن (فى ابريل سنة ١٩٤٤) وقد خسرت ألمانيا شيئاً عظيماً جداً من قوة السيوف والمدافع . ولكن قوة الكلمات النازية لاتزال تدفعها إلى المقاومة

وما المثليات والمبادىء إلا الكلمات . بل ماذا أعطانا الدين غير الكلمات ، كأن كل كلمة شعار أو مبدأ ، نبني عليه خطط الحياة ؟ وهل نسي أبو تمام أن المسيحية تركت كتاباً ، وأن الإسلام ترك كتاباً ، وكذلك فعلت سائر الأديان . وأن هذه الكتب أصدق أنباء من السيوف؟

ومن منا ينسى الكلمات الثلاث : الحرية ، المساواة ، الإخاء . هذه الكلمات التي أحدثت الثورة الفرنسية ، وغيرت المجتمع في أوربا . ولاتزال تغير مجتمعات أخرى في غير أوربا

وميزة الأعمال التغيير . ولكن هذه الميزة نفسها تلصق أيضاً بالأقوال

لأنه ما من كلمة نقولها في المجتمع إلا وتحدث تغييراً

كان أبو تمام شاعراً عربياً . وكان ملتون شاعراً انجليزياً . وقد قال الأول كلمته الكاذبة البشعة : « السيف أصدق أنباء من الكتب ». وقال الثاني : « من يقتل إنساناً طيباً ، فإنما يقتل مخلوقاً عاقلاً هو صورة الله . ولكن من يهلك كتاباً طيباً ، فإنما يهلك العقل نفسه . وكأنه يضرب صورة الله في عينها ... إلا أن الكتب ليست أشياء ميتة على الأطلاق ، إذ هي تحتوي قوة الحياة لأن تنشط ، كتلك النفس التي هي (الكتب) من سلالتها »

والحرب القائمة هي حرب بين كلمتين : الديمقراطية والفاشية

أجل . إن هناك أقوالاً ليست أفعالاً . وهناك كلمات ميتة ، هي

تلك التي تنفصل من المجتمع ، وتعتكف في معبد ، أو في كتب قديمة، لايقرأها الشعب . ذلك لأن أخص خصائص اللغة هو إجتماعيتها . فإذا لم يتكلم بها الشعب . ولم يجر التفاعل بينه وبينها ، فقدت قيمتها العلمية ولم تعد الأقوال أفعالاً

ولغتنا العربية من ناحية العلوم ميتة . ولذلك نحن لا نعيش المعيشة العلمية ، ولايتحرك مجتمعنا التحرك العلمي الذي تقتضيه معارف البيولوجية والكيمياء والسيكلوجية الخ . وكذلك يعد أدبنا ميتاً ، لأنه ليس أدب الشعب ، عامة الشعب وملايينه . إذ يُكتب بلغة لاتفهمها هذه الملايين

وحيوية اللغة تقاس بقدر ما فيها من أفعال . وأفعالها تقاس بقدر تفاعلها مع المجتمع الذي ينطق بها . فاللغات الأنجليزية والفرنسية والألمانية أكثر أفعالا من اللغة العربية ، لأنها أكثر تفاعلاً مع المجتمعات التي تنطق بها ، وأكثر أتصالاً بالعلوم العصرية التي تتحرك بها هذه المجتمعات

الذكاء واللغة

ليس هذا مقام البحث عن الكلمات، هل هي أصل التفكير، أم التفكير أصل الكلمات. وأعتقادنا أن التفكير ممكن بلا كلمات، ولكن في صورة بدائية مضطربة كما نفكر في الأحلام. وواضح أن أحلامنا حين تكون على مستوى خامد راكد بالنوم، تجري بلا كلمات. صورة تأخذ مكان صورة. ومنظراً يتلو منظراً

ونحن الكتاب كثيراً ما نجد، عندما نحلل تفكيرنا، أنه ينبعث ويتصل بالكلمات. ومما لاشك فيه أن هناك بين المتوحشين والبدائيين أذكياء من الطراز الأول. ولكن ذكاءهم يبقى عقيماً، لأنهم حين يفكرون يجدون تفكيرهم محدوداً بالتراث اللغوي المحدود الذي ينطقون ويفكرون بكلماته. واللغة لهذا السبب هي أعظم المؤسسات الأجتماعية في أية أمة. لأنها الوسيلة لتحريك الذكاء في أبنائها، ولتوجيه أخلاقهم بكلماتها التي تعبر عن المعرفة أو العقيدة أو الحكمة. ومن المحال أن تطمع الأمة في أديب من أبنائها إذا كانت لغتها غير أدبية. كما أنه من المحال أن تطمع في عالم إذا كانت لغتها غير علمية

والفرنسيون معروفون بالمنطق والوضوح والدقة في تفكيرهم، وأعتقادنا أن هذه صفات لغتهم أكثر مما هي صفات أذهانهم. فإنهم من حيث السلالة، لايختلفون ممن حولهم من الأمم الأوربية، ولكن اللغة

الفرنسية تحتوي كلمات وعبارات في غاية الوضوح والدقة ، بحيث أن المعنى يبرز بأكثر مما يبرز في أية لغة أخرى . ولذلك كثيراً ما نجد الكاتب الأنجليزي يعبر في غضون إنشائه بكلمة أو عبارة فرنسية ، يحس أن كلمات لغته لا تؤديها . وعناية الفرنسيين بتعليم لغتهم في المدارس تفوق أية عناية تبذلها أمة أخرى في تعليم لغتها لأبنائها

ويجب لذلك أن تكون الرسالة التعليمية الأولى لأية مدرسة مصرية هي تعليم اللغة العربية . وأن تكون غاية هذا التعليم إيجاد الكلمات التي تحرك ذكاءنا بالتفكير الحسن . وأن يكون هدف المعلم ليس العبارة الجميلة ، بل الكلمة الناجعة ، التي لايمكن أن تقوم مقامها كلمة أخرى. ولهذا يجب أن نتجه نحو الأسلوب الأقتصادي المضغوط ، فنقاطع المترادفات ، ولاتحمل التلميذ عبء كلمات لاينتفع بها في تفكيره العصري . فإن من يدرس ديوان المتنبي ، يجد فيه نحو ألف كلمة جديدة غير مألوفة في الصحف أو الكتب العصرية . ولكن هذه الكلمات لايمكن الشاب المصري أن ينتفع بها في عصرنا ، لأنها تصف مجتمعاً حربياً يخالف مجتمعنا . وهي لاتحرك ذكاءنا ، أو تحدد المعاني لمعارفنا، كما أنها لاتكسبنا الأتجاه الأخلاقي أو الفلسفي

وفي هذا القرن العشرين الذي نعيش فيه ، تحتاج كل لغة متمدنة إلى أن تحوي الكلمات الأجتماعية البارة التي توجه نحو الخير ، والكلمات العلمية والفنية التي تصف وتعالج مئة وعشرين علماً وفناً .

ومجتمعنا يجب أن يكون في أكثره مجتمع المعارف والمنطق ، وفي أقله مجتمع العقائد والعاطفة . ولذلك يجب أن تحوي كل لغة كلمات المعرفة الدقيقة التي لا تلتبس مع كلمات أخرى ، حتى إذا فكرنا بها سار تفكيرنا على مستوى الذكاء الذي يمكننا من أن نعيش المعيشة العلمية في مجتمع علمي

وخلاصة القول إنه يجب علينا :

١- أن نعنى أكبر العناية بتعليم أبنائنا لغتهم الوطنية ، لأنها وسيلة التفكير التي تحرك ذكاءهم . وهي لذلك أثمن مؤسساتنا

٢- أن تكون البلاغة بلاغة المنطق والمعرفة ، بدلاً من بلاغة الأنفعال والعقيدة . كما يجب أن نتوقى المترادفات والكلمات الملتبسة ، وأن نميز بين الكلمة الذاتية والكلمة الموضوعية

٣- أن يتأنق التلميذ في تعبيره ، ولكن تأنق الذكاء ، وليس تأنق البهرجة البديعة

٤- أن يحس المشرفون على اللغة أن كل تقصير في إيجاد الكلمات التي تؤدي إلى الفهم العلمي ، إنما هو تعطيل لتطور الأمة

٥- أن نذكر أنه على قدر أرتقاء اللغة ، ووفرة كلماتها ودقة معانيها ، يكون الأنتفاع بذكاء أبناء الأمة

كلمات تبني الأخلاق

للكلمات إيحاء إجتماعي للخير أو للشر . وكثير من الكلمات يحمل شحنة عاطفية أنفجارية للشر ، مثل كلمة « دم » في الصعيد ، أو للخير مثل كلمة « مروءة » في أنحاء العالم العربي

وفي اللغة العربية كلمات مثل المروءة والبر والشهامة والفتوة والمجد، وهي تحف لغوية يجب أن نقتنيها في بيوتنا ، ونعتز بها ، ونعرضها على أبنائنا ، ونتحدث عنها . وما أسماها من كلمات ، كل منها بمثابة المؤسسة الأجتماعية التي تبعث الخير وتعمم الشرف أينما وجدت . وإذا كانت المجتمعات العربية القديمة قد قصرت في فن الحكومة ، لأنها لم تعرف البرلمان أو المجلس البلدي ، فإن هذه الكلمات قد أستطاعت في أحايين كثيرة أن توجد المجتمع البار ، وأن تقيم العدل مكان الظلم ، وأن تحمل على الطموح والتطلع إلى السماء . وأربع من هذه الكلمات الخمس ، أو على الأقل ثلاث ، لايمكن ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية . ولست أقصد هنا من الترجمة ، أن نجد الكلمة التي يدل أشتقاقها في الأنجليزية على أنها ترادف العربية ، بل أقصد الجو الأجتماعي التي تحدثه كلمات مثل المروءة أو الفتوة أو البر . فإني أجزم بأن اللغة الأنجليزية لاتستطيع التعبير عنها

ولو كانت لغتنا تحوي خمسين من هذه الكلمات ، بل التحف الغالية،

لكان في مقدورنا أن نبني بها أخلاق الأمة ، ونعين لها النفسية التي تعيش بها في سعادة ورفاهية . ولو كانت الأمم العربية تكسب في كل مئة سنة كلمة جديدة لها هذه القوة في الخير ، لصار المجتمع العربي أسمى المجتمعات في التفكير العاطفي

وقد يمكن السيكلوجي أن يقول أن هذه الكلمات إنما عبأت هذه العواطف السامية ، لانها كلمات تعويضية . أي أن المجتمع العربي في القرون الماضية ، لما كابد من مظالم حكوماته ، قد تعوض بهذه الكلمات من هذه المظالم ، فأقام عدلاً إجتماعياً مكان الظلم الحكومي أو إلى جانبه

أنظر كلمة « مروءة » وما تحمله إلينا من المعاني السلبية والأيجابية التي تكف وتغري . فليس من المروءة ألا نغيث السائل المحتاج ، أو نخون الأمانة ، أو ننكث العهد . ولكن من المروءة أن نتجاوز عن حقوقنا عند المحتاجين ، وأن نتصدق حتى ولو كنا مخدوعين ، وأن نعين العاجز ونسعف الملهوف . قال الزمخشري : « المروءة هي كمال الرجولة ». وقال المصباح : « المروءة آداب نفسانية ، تحمل مراعاتها الأنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات »

ولكن أين تعريف المعاجم هذا الجامد ، مما يعرفه جمهورنا عن هذه الكلمة السامية ؟ فإن أحدنا ليقول : « دعك من هذا الرجل ، فأنك لن تجد عنده مروءة ». وكأنه قد حكم عليه بالأعدام المدني

وأذكر أيها القاريء كم من موقف قد أحتشدت فيه الدنايا والخسائس، وطغت فيه الظلمات الحيوانية على الروحية الأنسانية ، وإذا بهذه الكلمة ينطق بها واحد ، فتنفجر منها قوة للخير . فيخسأ الظلم ، وينهزم العدوان ، ويخفت صوت الحيوان ، ويعلو صوت الأنسان

ثم أنظر إلى كلمة « بر » . ونحن نقول في أيامنا البر الأجتماعي ، ولكن في المعنى الأصلي ، هو البر بالوالدين . علاقة عائلية حميمة ، ما أشرفها وما أجملها

أو أنظر إلى كلمة الفتوة . فإن هذه الكلمة ، لما حملته من المعاني البارة ، بعثت أفراداً في المجتمع العربي على تأليف جمعيات للخير والشهامه والمجد . فكان منهم « فتيان » يخدمون الفضيلة ، ويرفعون أنفسهم إلى مستوى عالٍ من السلوك والأخلاق . قال الزمخشري : «الفتوة هي الحرية والكرم »

وحسب كلمة ، أن يكون بها من القوة الأنفجارية للخير ، أن تتألف الجمعيات بإيحاء لفظها

فهذه كلمات ثلاث خدمت المجتمع العربي ، وعينت له أهدافاً من الشرف والسمو ، وبنت له من الأخلاق التي كان الحكم الجائر يهدمها . وكما قلت ، لايمكن ترجمة هذه الكلمات إلى اللغة الأنجليزية ، لأن لكل منها معنى حميماً يتصل بالمجتمع أو العائلة في جونا العربي

فإذا أضفت إلى هذه الكلمات كلمات أخر ، مثل المجد والشهامة

والنخوة ، عرفت قيمة هذه الكلمات التي يعد كل منها شعاراً يهتدي به الفرد في مجتمعه ، ويجد الأتجاه السديد نحو الملاءمة الأجتماعية

ومهمة الأديب أن يوجد مثل هذه الكلمات في لغته . لأنه عندئذ ينقل الجزاءات من المحكمة والسجن ، إلى المجتمع والضمير . فالشاب الذى أنغرست فيه معاني هذه الكلمات وما يقاربها ، لايحتاج إلى أن ننصب له الميزان الأخلاقي بالقوانين والمحاكم . لأن هذه الكلمات قد أقامت هذا الميزان في ضميره . فالدافع والوازع معاً داخليان هنا بالضمير ، وليسا خارجين بالمحكمة والقانون

وليست الكلمات سواء . فهناك من الكلمات ما نستعمله ، فنرتفع فوق أنفسنا في الذكاء أو العاطفة . بل أكثر من ذلك . فإني أكاد أقول إن بعض الكلمات ، يجعل الناس أذكى مما يتوهمون . كما أن هناك كلمات تجعلهم أشرف وأشهم مما يحسون . وقد تكون الكلمات أربطة أجتماعية تضمد وتجمع ، كما قد تكون سموماً تفكك المجتمع وتنساب فيه شروراً

الكلمة شعار

في الفصل السابق ، ذكرت بضع كلمات عربية قديمة ، يصح أن يكون كل منها شعاراً ينضوي إليه ويعمل به كل شاب . بل يصح أن تؤلف الجمعيات للدعوة إلى المباديء التي تقول بها . فنقول : « جمعية المروءة» أو « جمعية الفتوة » أو جمعية الشهامة ». وندعو الشبان والفتيات إلى إتخاذ المباديء التي تنطوي عليها كل من هذه الكلمات

وأي شيء هو أثمن ، في أية لغة في العالم ، من أن تحمل كلماتها ، أو بعض كلماتها ، المباديً الأجتماعية السامية ، التي تنظم بها المجتمع ، ويسير بها أفراده عفو قلوبهم ، سيرة الشرف والأستقامة والطيبة ؟

والأمة المتطورة تحتاج إلى كلمات جديدة تحمل لها الهداية العصرية والأهداف الأجتماعية . كلمات تمتاز بالأيحاء ، الذي يحيل المجتمع الموات إلى مجتمع حي يقظ . كلمات يحس الفرد نشوتها ، بل يتأثر بكيميائها

ويجب أن أقول إننا نحن في مصر ، قد قطعنا شوطاً كبيراً في هذا الميدان . فأخترعنا الكلمات التي تُوجد وتُرشد . وكان من حظي أن أقوم بنصيب حسن في هذا الميدان

أنظر إلى كلمات : وطنية ، عائلة ، شخصية ، مجتمع ، ثقافة ،

تطور ، عالمية ، تجديد ، رجعية ، ثورة. فأنها جميعها كلمات حيوية تؤدي وظائف فسيولوجية في المجتمع الحي . وليس في المعاجم العربية ما يشير إلى معانيها العصرية . ولكننا نحن وضعناها ، أو ألصقنا معنى جديداً بكلمة قديمة ، كما فعلنا في « ثورة ». فأن الكلمة المألوفة في كتب العرب هي « فتنة ». وهي كلمة كريهة ، تدل على شعور السادة الغاصبين ، ولا تدل على شعور الشعب الناهض . فالمؤرخ الذي يكتب عن الثورة الفرنسية ، إذا كان ملوكياً ، فانه يصفها بأنها « فتنة باغية » على العرش والبلاد . وإذا كان ديمقراطياً ، فأنه يصفها بأنها « ثورة عادلة » قام بها الشعب الفرنسي في أنتقال إجتماعي خطير . وأستعمالنا « ثورة » بدلاً من « فتنة » يحلل معنى إجتماعياً سامياً

وقد وضعنا نحن « وطنية » لكي نقرر بها إحساساً جغرافياً جديداً، يناقض الأحساس الثيوقراطي القديم الذي كان يعم العالم العربي ، بل أوربا ، في العصور الوسطى

وكذلك وضعنا « عائلة » لكي ننقل بها نظاماً أوربياً لم يكن موجوداً في بلادنا ، ولما تنجح . ولكن في هذه الكلمة من القوة السيكلوجية ، ما يسير بهذا النظام رويداً نحو النجاح

أنظر إلى كلمة « شخصية » فقد ألفت أنا كتاباً عن هذه الكلمة . وهي من الكلمات التي تُخصب المجتمع ، وتحفز الفرد إلى الرقي

والتطور

وفي كلمة « مجتمع » معنى عصري ، لم يكن يستطيع الحاكمون في مصر أن يفهموه أيام محمد علي أو المماليك ، حين كانت ميزات الثورة والحكم والقوة ، في أيدي الأتراك والأرنئوط دون المصريين .

ولي أنا كتاب عن كلمة « تطور » . أما كلمة « ثقافة » فإني لم أنجح في كلمة أخرى نجاحي في تعميمها . وكلتاهما ، ثقافة وتطور ، تعين أسلوباً للحياة عند الشاب ، وتفتح أبواب الرقي والتجديد ، وتصد الرجعية والجمود

وهناك عبارات مثل هذه الكلمات ، لها قوة التحريك الأجتماعي . ويجب أن يكون اهتمام الأديب ، بالأكثار منها ، حتى يألفها الجمهور، فينصبها أهدافاً لكي يصل إليها ، أو يذكرها ، ويتحفز بها إلى التجديد والرقي

أعتبر ما أحاوله أنا من تسمية أعضاء التناسل ، أعضاء الخلود البشري ، وما يحمله هذا التعبير من المعنى السامي للحب

. أو أنظر إلى قولنا : « الدولة الأيجابية » أي الدولة التي تعمل للرقي والبناء . ولاتقتصر على أن تكون سلبية ، لكفالة الأمن العام فقط ، كما كان الرأي في القرن التاسع عشر

أو أنظر إلى قولنا « القحط ثمرة الوفرة ». فأن في هذه العبارة مفتاح الفهم السديد لنظام الأنتاج الحاضر في أوربا وأمريكا

أو أنظر إلى قولنا : « الجوع الكيماوي » حيث يكون الشبع بالكم يحمل الجوع بالكيف ، كما هي الحال في النقص الڤيتاميني ، ينشأ بين الفقراء ، بل وأحياناً بين الأغنياء . فأن في هذه العبارة ما يبعث على الدراسة للقيم الغذائية

أو أنظر إلى قولنا : « أدب الكفاح وأدب التفرج » . وقيمة هذه العبارات في الأدب ، وعلاقته بالمجتمع

أو أنظر إلى عبارة : « البيئة والوراثة في التربية » فإن فيها ما يبعث على التفكير والدراسة سنين عديدة

وقد كان يقال إن لكل نبي رسالة ، وهذا كلام حسن . ولكن لم لايكون لكل « إنسان » رسالة ، في الخير والشرف والمجد ؟

هذه جميعها كلمات ، بل محركات أجتماعية ، كل كلمة منها شعار. كأنه راية الجهاد للدفاع عن الذكاء والأخلاق ، وللدعوة إلى الخير والرقي

فن البلاغة

من أسوأ الأنحرافات الذهنية في الأنسان ، أنه يحيل الوسائل إلى غايات . فإن الناس يجمعون المال وسيلة ، يصلون بها إلى غاية السعادة . وهذا هو الزعم ، بل الفهم العام . ولكن ماهو أن يشرع أحدنا في جمع المال ، حتى ينسى الغاية ، فيبقى طيلة حياته وهو في هذا الأسر . أي يجمع المال وغايته المال لا أكثر . كأن الحياة قد أصبحت وسيلة للمال ، وليس المال وسيلة للحياة

وهذا الأنحراف ، كثيراً ما نجده في شئون أخرى . حين يقال إن الأدب غاية الحياة ، أو الثقافة ، أو الفن . بل هناك مذاهب تقول إن الدولة غاية . وقبل نحو خمسين سنة شاع مذهب يقول : « الفن للفن » بأن الفن غاية

والواقع أنه ليس للحياة غاية سوى الحياة . وكل ماعدا الحياة ، إنما هو وسائل للحياة . فاللغة والأدب والفن والبلاغة ، إنما هي جميعها في خدمة الحياة ، التي لها الأحترام الأول والمكانة المفضلة . فنحن نتعلم الفنون ، ونمارس البلاغة ، ونعنى بالثقافة ، كي نصل في النهاية إلى مستوى عالٍ من الحياة . ولذلك لا نحتاج إلى أن نشرح للقاريء أن بلاغة الحياة ، أهم وأخطر من بلاغة اللغة . وأن أسلوب الحياة ، أجدر بالأولية والتفضيل في التعليم ، من أسلوب الكتابة . وأن فن الحياة هو

أشرف وأجدى الفنون على هذا الكوكب

وإذا جعلنا الحياة الشريفة السعيدة هدفاً ، نوجه اليه فنوننا وعلومنا وعقائدنا ، فأننا نستطيع أن ننزع عن هذه جميعها ، تلك القداسة التي تحول بيننا وبين تنقيحها أو تغييرها . ويعود عندئذ « فن البلاغة » فناً تجريبياً مثل جميع الفنون . ويتغير كما تغيرت . فليس شك في أن التغير أو التنقيح ، قد عم فنوناً كثيرة في عصرنا ، مثل الرسم أو النحت أو البناء . ولكن فن البلاغة في اللغة العربية لم يتغير

فحياتنا العصرية تختلف عن الحياة العربية قبل ألف سنة . فإذا كنا نسلم بأن فن البلاغة يجب أن يكون في خدمة هذه الحياة العصرية ، فأنه يجب أن يتغير كي يخدمها . فلم يعد مجتمعنا في حاجة إلى البهارج والزخارف البديعية ، نحطم رؤوس أبنائنا بتعلمها أو ممارستها . ولكننا في حاجة إلى أن نجعل البلاغة فناً للتفكير الحسن السديد . وللأمة المصرية حق تطوري في هذا التغيير

ويجب أن نشرح غايتنا من البلاغة الجديدة :

١- فهي قبل كل شيء ، التفكير المنطقي السديد، الذي يؤمن فيه الخطأ

٢- تحريك الذكاء وتدريبه بالكلمات

٣- أن نعرف كيف نستعمل الكلمات للتفكير التوجيهي

٤- أن نعرف كيف نستعمل الكلمات للتحريك الأجتماعي

فأما القاعدة الأولى ، وهي أن التفكير يجب أن يكون منطقياً ،

فتقضي بدراسة كتاب موجز في المنطق . وإذا كان اللورد هور در الطبيب الأنجليزي » ينصح لكليات الطب في بريطانيا بتدريس كتاب جيفونز في المنطق في السنة الأولى من الدراسة الطبية ، فأننا أحوج إلى مثل هذه النصيحة في دراسة اللغة العربية في كلية الآداب أو في دار العلوم

ويجب أن تكون الكلمات موضوعاً لتدريب الذكاء اللغوي في التلميذ والطالب . ولن يستطيع مدرس اللغة أن يصل إلى ذلك ، إلا إذا كان موسوعي المعارف ، قد درس إحدى اللغات الأوربية وأتقن علماً عصرياً

وإلى هنا الفائدة سلبية ، وهي أننا لا نقع في الخطأ والألتباس . ولكن يجب أن نتعلم اللغة للفائدة الأيجابية ، وهي الأنتفاع بها في إيجاد الكلمات الموطرية التي تحرك الفرد والمجتمع . أي نعرف القيم السيكلوجية للكلمات ، وما فيها من شحنات عاطفية أو تنبيهات ذهنية

فاللغة علم وفن . هي علم من حيث أننا يجب أن نعرف كيف ننتقد المعاني ، وكيف نسبر المعاني في الكلمة . وهي فن من حيث قدرتنا على أستعمال الكلمات ، كي تبعث التحريك الأجتماعي أو التنبيه الذهني أو العاطفي في الفرد أو الجماعة . أي أننا نستطيع أن نعبيء الكلمات للأصلاح

فى ١٩٠٤ كنا قد وصلنا إلى أعمق هوة من الضعف الوطني .

وكان يقال لنا إن بلادنا زراعية ، وأنها يجب ألا تتجه وجهة صناعية . وصدر في تلك السنة قانون ، يصف المصانع بأنها :« محلات مضرة بالصحة أو مقلقة للراحة أو خطرة »

وإلى الآن ، لايزال هذا القانون قائماً . وإلى الآن ، لايزال هذا هو وصف المصانع . بل كلمة « مصنع » لا ذكر لها في قوانيننا . فاذا كنت مصرياً ناهضاً ، قد تأملت الدنيا ، وعرفت أن الرقي إنما هو صفة الأمم الصناعية ، وحملتك وطنيتك على أن تنشيء مصنعاً في مصر ، كي تربح منه وتوفر للشبان عملاً وللجمهور بضائع رخيصة . فأعلم أنك تؤسس محلاً « مضراً بالصحة أو مقلقاً للراحة أو خطراً ». وبعد أن تؤسس هذا المصنع سيأتيك موظفون من وزارتي الداخلية والصحة ، وكل منهم مزود بعاطفة قد أحدثتها في نفسه هذه الكلمات : « مضر بالصحة . مقلق للراحة . خطر ». فهو ينظر إلى مصنعك وإليك بهذه العاطفة . ويجب ألا تنسى ، أنه لا يزورك مع ذلك موظف من وزارة التجارة والصناعة

تأمل ، أيها القاريء ، ماذا كان إحساسنا . وأية عاطفة كانت تثار في نفوسنا ، لو أننا أسمينا المستشفى : « محل يقتل فيه الناس أو تقطع أعضاؤهم أو يجرحون » ؟

فهنا مثال للفائدة التي نجنيها من الأستعمال الإيجابي للغة . فأذا شئنا أن نحب الأنكليس ، فيجب الا نسميه ثعباناً . وإذا شئنا أن نحب

المصنع ، ونحض الناس على إتخاذ الصناعة ، فيجب أن نختار له إسماً إيحائياً مغرياً . كأن نقول بدلاً من العبارات السابقة : « كل من أسس محلاً مفيداً للأمة ، يزيد ثروتها ويوفر العمل لأبنائها ، ويرخص البضائع النافعة الخ ». ألا ترى القوة الموطرية في الكلمات ؟ ألا ترى أن هذه الكلمات كانت أليق وأشكل ، بوصف المصنع في عصرنا الجديد؟ ألا ترى أننا هنا نجد الخدمة الأجتماعية العظمى من البلاغة الجديدة ؟

أجل . أن المصانع في مصر يجب أن تعد مقياس الأمة ، كالمعابد سواء . إذ هي التي سوف تنقلنا من الرقود الريفي إلى التحرك المدني

فيجب أن نجد في قوانيننا ولغتنا ، الوصف الإطرائي المغري بتأسيسها

اللغة العصرية

عرف القاريء من مقال الأستاذ أحمد أمين ، أن معظم الأضطراب في المعاني ، يرجع إلى أننا أحياناً نستعمل كلمات وعبارات نشأت في بيئة إجتماعية غير بيئتنا . وهي كلمات أو مجازات أو أستعارات أشتقت من أساليب التفكير ، الذي كان متبعاً قبل نحو ألف سنة في بغداد مثلاً ، أو لايزال يتبع في إقليم عربي آخر له أسلوب تفكيري يخالف أسلوبنا ، ولو أنه يعيش في عصرنا . وهذا الأسلوب قد حمل السكان هناك على سلوك لغوي يخالف سلوكنا

وثم قاعدة تاريخية سديدة يجب أن نذكرها على الدوام ، وهي أن طراز الثقافة يصاغ وفق الوسائل التي تُستَخدم في تحصيل العيش . فوسائل العيش في القاهرة تختلف مما كانت في بغداد قبل ألف سنة ، وتختلف مما هي في مراكش أو صنعاء الآن . ولذلك تختلف أيضاً ثقافتنا . واللغة تسير وراء الثقافة . وكلماتها تحمل المعاني التي تتطلبها هذه الثقافة ، أو هي تعجز عن حمل هذه المعاني ، فيحتاج المجتمع إلى غيرها . إذ لا مفر من أن نربط اللغة بالمجتمع

ونحن نحاول أن نرقى بأمتنا . ولكن ما معنى هذا الرقي ؟

هذا الرقي يعني أننا نعيش المعيشة العلمية ، حيث تستند الحقائق إلى البينات لا إلى العقائد . ولن نستطيع أن نتجاهل الوثية الجديدة في

هذه الدنيا ، وهي أنها قد تقلصت فيها المسافات ، حتى يمكن أن يقال إنها صغرت ، فصارت قرية واحدة

فيجب لهذا السبب :

١- أن نجعل ثقافتنا علمية ، وأن نجعل لغتنا علمية . ويجب أن نستعمل كلمات العلوم في تعبيرنا في الصحف والكتب والحديث

٢- وأن نجعل ثقافتنا كوكبية ، حتى تتسع آفاقنا الذهنية والنفسية. ونمارس بذلك حقنا البشري الأول ، وهو أن هذا الكوكب ملكنا ، ولنا الحق في معالجة شئونه بكلمات كوكبية

وفي الفصل التالي سنعرف ما هي هذه الكلمات الكوكبية . أما هنا، فنقتصر على التعبير العلمي ، أي أستخدام كلمات العلوم في بيئتنا الأجتماعية بأعتبارها الكلمات المجازية التي تتفق والمجتمع الذي ننشد

وفيما يلي بعض التعابير التي أشتققتها أنا من اللغة العلمية على سبيل المثال :

التفاعل بين اللغة والمجتمع - كيمياء

الأستقلال هو بؤرة الأشتعال الوطني في مصر - طبيعيات

نعيش في عصر متوتر بالمصاعب والمشكلات - سيكلوجية

اللغة هي الجهاز العصبي للمجتمع - طب

الحياة تفقد إيقاعها في المرض - موسيقا

أول ما تجرثمت الفكرة عندي - سيكلوجية

يجب أن ننظر إلى المستقبل ببصيرة تلسكوبية - فلكيات

كان عندما يدخل البيت يرصد جوه ، هل ينذر بالعاصفة - فلكيات

كان مذهب التطور من أعظم الخمائر الأجتماعية في القرن الماضي كيمياء

رجل يمتاز بالبصيرة السيكلوجية - سيكلوجية

يعاني تخمة ذهنية - طب

الإيحاء أفعل من الإغراء - سيكلوجية

التحرش بالغريزة الجنسية في القصص - سيكلوجية

خوف الغارات قد نفذ إلى جميع مسام المجتمع - طب

يمشي في تثاقل روماتزمي - طب

من الحركات المغنطيسية التي تجذب الشبان - طبيعيات

الطاقة الموطرية في الكلمات - طبيعيات

يخشى الدنيا ، ويرى المصباح الأحمر أينما سار - ميكانيات

الحرب هي قاطرة التاريخ ، لأنها تعجل التطور - ميكانيات

الوقت يقف كالخثرة في الدورة الأقتصادية المصرية - طب

* * *

نحن الآن نستعمل القطار والرديوفون والعدسة ، ونعرف الجراثيم في الأمراض .وليس في المدينة شيء نألفه مثل الموطر . وللمصباح الأحمر

فى حياتنا المدنية قيمة الحياة والموت . فيجب أن نستعمل هذه الكلمات في مجتمعنا ، كما أستعمل العرب الكلمات التي تتصل بحياة الجمل، ونبات الصحراء ، وأعلام الطرق والجبل والسهل ، والقتال الخ

كلمات كوكبية

في هذا العصر الذي نعيش فيه ، يجري إنقلابان من أخطر ما جرى على هذا الكوكب في تاريخه . وإذا لم نكن نحن على وجدان بهذين الأنقلابين ، فأن تطورنا يتأخر ، ونتخلف عن قافلة الحضارة

الأنقلاب الأول أن العقل البشري في أعلى مستواه ، قد أنتقل إلى التفكير العلمي . فصار الأنسان يعالج مشكلاته في السياسة والصحة والأجتماع والأقتصاد بالعلم ، أو هو يحاول ذلك . والأمة التي تمارس العلم ترتقي وتتفوق ، بل هي تستطيع أن تستخدم الأمة التي لا تمارس العلم ، كما نستخدم نحن الجاموس أو البقر . ويتضح هذا بنظرة عاجلة للأمم المختلفة على هذا الكوكب

والأنقلاب الثاني أن هذا الكوكب يصير رويداً نحو التوحيد . وليس هذا ثمرة الأرادة البشرية ، ولكنه ثمرة العلم الذي محا المسافات ، حتى صار الأنتقال من القاهرة إلى القطب الشمالي (في ١٩٤٤) يحتاج بالطائرة ، إلى أقل مما كان يحتاج إليه الأنتقال من القاهرة إلى طنطا قبل مئة سنة بوسائل النقل القديمة . ومحو المسافات هذا قد عمل على التقريب الجغرافي والتقريب النفسي معاً . ولذلك أراني أهتم في الصباح بقراءة الأخبار عن التطورات السياسية أو الأجتماعية في روسيا أو الولايات المتحدة الأمريكية أو المانيا ، كما صرت ألوك أسماء

سمطس وتشرشل وروزفيلت وستالين وشيانج كاي شيك ، كما ألوك أسماء الساسة في مصر

التفكير العلمي من ناحية ، والعقلية الكوكبية من ناحية أخرى ، كلاهما يؤثر في تطورنا السياسي والأقتصادي . ويجب لذلك أن يؤثر في تطورنا اللغوي

فالعلم تفكير جديد ، يحتاج إلى لغة جديدة . وهذا ما حدث في أوربا . فأن الأوربيين حين شرعوا يفكرون تفكير المنطق والتجربة ، تفكير الذهن واليد ، أي التفكير العلمي ، وجدوا أن دقة التعبير تحتاج إلى كلمات جديدة ليست لها أية ملابسات قديمة . فأخترعوا هذه الكلمات ، ليس من لغاتهم ، بل من لغات قديمة لايعرفها الجمهور . وبذلك أصبح لكل علم لغته الخاصة ، التي لا يمكن أن يقال إنها أنجليزية أو فرنسية أو روسية . بل هي لغة العلم . فكلمة « بيولوجية» لا يعرفها رجل الشارع في لندن أو باريس أو نيويورك . لأنها كلمة مشتقة من اللاتينية ، كي تعبر عن معنى لم يكن الجمهور في حاجة إليه قبل مئتي سنة مثلاً . وقس على هذا كلمات كثيرة مثل : المندلية في الوراثة . اليوجنية في إصلاح النسل . السيمائية في المنطق اللغوي . الإسبكترسكوب ، والتلكسوب ، والميكرسكوب ، والسييزموجراف ، والكارديوجراف ، والرديوفون ، والتليفون ، والتلغراف . الهرمونات من الغدد . الڤيتامينات . الخ

فجميع هذه الكلمات ، وآلاف غيرها ، يعرفها الياباني والأنجليزي والهندوكي والأرچنتيني . ولايحاول واحد منهم أن يترجمها إلى لغته . أولا : لأنه يحس أنه إذا أختار كلمة من لغته ، فأنها تحمل معها ملابسات لايعرف كيف يتخلص منها . وثانياً : لأنه عندئذ ينعزل بكلمة خاصة ، ليست في لغة هذا العلم ، التي يعرفها العلميون فى الأقطار الأخرى

فلكل علم لغته ، التي يجب أن تستعمل في أي مكان على هذا الكوكب . ولايصح أن تترجم . بل هي لا يمكن أن تترجم ، إلا مع الضرر بالتفكير العلمي . والعلم شيء جديد في عصرنا ، فيجب أن نقبل أسلوبه الجديد في التعبير

وليس شك في أن المصري الذي تجابهه كلمة سييزموجراف ، أو إسبكترسكوب ، يضرس كما لو كان يمضغ حامضاً . لأنه يحس صدمة لغوية تخالف مألوفه . ولكن سرعان مايزول هذا الضرس بالألفة

وكلمات العلم أجنبية في جميع اللغات ، وليس علينا حرج أن تكون كذلك أجنبية في لغتنا . بل أن رجال العلم الأوربيين ، يأخذون كلمات المتوحشين حين تكون لها دلالة في الأنثروبولوچية مثلاً ، كما نرى في كلمتي «طبو » و « طوطم »

والمصري الذي يتخصص في علم ما ، يحتاج إلى متابعة الدراسة مدى حياته لهذا العلم . ولا غنى له عن كلمات هذا العلم التي

يستعملها جميع المتخصصين فيه في القارات الخمس . وهو يفكر بهذه الكلمات . ومن التكليف المرهق ، أن نطالبه بترجمة هذه الكلمات إلى لغتنا . لأن كل مانحتاج إليه أن نعرف هذه الكلمات ، وأن نصوغها في صيغة عربية ، إذا كنا سنؤلف بها في لغتنا الدارجة . أو لا نصوغها ، إذا كانت ستبقى مقصورة على المتخصصين

هذا من حيث كلمات العلوم . ولكن تقلص المسافات ، قد أحال هذا الكوكب إلى قطر واحد تسكنه أمة واحدة . وهذا يحملنا على أن نتخذ العقلية الكوكبية . ولذلك جرت صحفنا على أن تستعمل هذه الكلمات والعبارات الكوكبية :

بروتوكول. مناقشات بيزنطية . حب أفلاطوني. حكومة بيروقراطية. ديمقراطية . النظام السوفيتي . التلغراف . التليفون . الرديوفون . السينماتوغراف . الخ

ونحن والفرنسيون والألمان والصينيون والأمريكيون سواء في أستعمال هذه الكلمات . وسوف تزداد هذه الكلمات في المستقبل بالعشرات بل بالمئات . وهذا تطور حسن . لأن هذا الأتجاه ، مع كلمات العلوم ، يحدث القرابة الذهنية ، التي ستؤدى يوماً إلى قرابة نفسية . فلا يكون الشعور بالبعد والفرقة والأنفصال ، ثم الأنعزال ، فالعداء بين الشعوب

وكل مصري بار بوطنه وبهذا الكوكب ، يجب ألا يعارض هذا

الأتجاه . لأن المعارضة في حقيقتها تعني عقوقاً بحقوق البشر ، وعرقلة لأتحاد أبناء هذا الكوكب ورقيهم . وبأتخاذ هذه الكلمات ، نقرب من العقلية الكوكبية ، والثقافة الكوكبية ، وربما اللغة الكوكبية

وعندي أن بعض الميزات لما يقترحه عبد العزيز فهمي (باشا) من أتخاذ الحروف اللاتينية في كتابتنا ، يعود إلى أن هذه الحروف قد تضمنا إلى مجموعة الأمم المتمدنة ، وتكسبنا عقلية المتمدنين ، وتنزع منا تلك الخصومة التي تبعثها كلمتا شرق وغرب . وتجعلنا أقرب إلى العقلية الكوكبية واللغة الكوكبية . ولكنني مع ذلك لا أنتقص الفائدة من الخط اللاتيني في التعبير عن كلمات العلوم . فإن هذه الكلمات تبدو نابية في الخط العربي ، كما تغيب أصولها التي أشتقت منها ، فلا نفهمها عند رؤيتها . وربما كان هذا من أكبر الأسباب للنفور منها ، ثم لتخلفنا في العلوم

وواضح من تاريخ العرب ، أنهم عربوا في كثير من الأحوال بدلاً من أن يترجموا . كما نرى في هذه الكلمات : أستاذ . أدب . أقليم . فلسفة . أبريق . قاضٍ . كابوس . قانون . زخرفة . تاريخ . ألماس . جغرافية . أنبيق . زكاة . بستان . برج . تلميذ . جدول . سجل . ترعة. دستور . قنطار . عقار . فدان . سمسار . صراط . صابون . لغة . قفطان . ناموس . رقص . حب . سيماء . الخ

فكل هذه الكلمات ، ومئات غيرها ، يرجع إلى أصل أغريقي ، أو

أصل لاتيني ، أو غيرهما . ولم يحاول كتاب العرب ترجمتها، وإنما أكسبوها صيغة عربية لا أكثر . ولا ينكر أنهم عمدوا إلى الترجمة أحياناً ، كما فعلوا في كلمات المنطق . فأنهم أبتدأوا بأصطناع كلمة السلجسة (سبوچيم) ثم تركوها وقالوا القياس

وكل منا يأسف الآن على تركهم للسلجسة المعربة ، وإتخاذهم كلمة القياس المترجمة . لأن كلمة القياس تتحمل طائفة من المعاني التي تربكنا ، في حين نحتاج إلى الدقة في قواعد المنطق

وللتعريب ، فضلاً عن قيمته في التقرب من لغة بشرية عامة ، وفضلاً عن قيمته الدراسية في العلوم ، قيمة ثقافية أخرى . لأنه يبصرنا بالتاريخ والتطور الثقافي . فنحن حين نقول :« برلمان » نحس من حروف هذه الكلمة تاريخاً عاماً للحكم النيابي في العالم ، وليس في مصر وحدها . ونعرف الأصل لهذا الحكم . وكذلك الحال في أتومبيل ، وتلفون ، وبسكلت ، ومنجة ، وجوافه ، وككتوس ، وقيصر، وريشتاج ، وسوڤييت ، وميكادو الخ

ومن مصلحة الثقافة ، أن تبقى هذه الكلمات على أصولها ، كي نزداد معرفة للتاريخ ، أي فهماً للدنيا

القدرة على إصطناع الكلمات الأجنبية

قال هـ . ج . ولز فى كتيبه « العلم والعقل العالمي » :

« نستطيع أن نقول ، أن كفة الرأي ترجح في ناحية أتخاذ اللغة الأنجليزية أساساً مهماً للغة عالمية . ولست أقول هنا ، أن اللغة الأنجليزية تصلح لأن تكون أساساً مهماً فقط . ذلك أن أنتشارها في أنحاء العالم في الوقت الحاضر ، وخلوها من التغيرات الصرفية ، والأرتباكات النحوية ، وقدرتها على تمثيل الكلمات الأجنبية ، كل هذا يحسب من محاسنها . ولكن هناك ما هو ضد ذلك . وهو هذا الجمود العتيد ، جمود الطبقة العالية التي تهاب ولا تقتحم ، هذا الجمود الذي يتحيز مكاناً كبيراً في التقاليد التعليمية البريطانية ، التي تنزع إلى الكلاسية أو التليدية العميقة ، التي تعد في روحها إنفصالية ترفعية . وهذه النزعة ليست فقط غير مساعدة لأنتشار اللغة الأنجليزية ، بل هي تعرقل هذا الأنتشار عرقلة قوية »

هذه هي كلمة ولز . ومنها نفهم أن اللغة الأنجليزية تصبح أن تكون أساساً للغة عالمية لجملة ميزات ، هي :

١- أنها أنتشرت في عصرنا أنتشاراً عظيماً

٢- أنها تخلو من القواعد الشاقة في النحو والصرف

٣- أنها قادرة على تمثيل الكلمات الأجنبية

ولكن ولز يرى أن بين بعض المتعلمين روحاً ينزع إلى التليدية أو الكلاسية ، فيهابون الكلمة الجديدة ، ولا يرحبون بالكلمات الأجنبية التي تُخصب بها اللغة وتزهر

ونحن في مصر ، حين نقارن بين العربية كما نتعلمها ونكتبها ، وبين الأنجليزية ، نعرف أن نزوعها إلى الكلاسية ، وكراهتنا للكلمات الأجنبية تزيد ، ليس مئة مرة بل ألف مرة ، على ما يشكوه ولز من الكلاسيين الأنجليز . وحسبنا من هذا أن نعرف شيئين :

١- أن في اللغة الأنجليزية نحو ألف كلمة عربية ، وليس في لغتنا نحو عشرين كلمة أنجليزية

٢- أن الكلاسية (التليدية) الأنجليزية ، لا تبلغ جزءاً من ألف من الكلاسية العربية . والبرهان على هذا أن في شكسبير ، الذي مات قبل نحو ٣٨٠ سنة ، تعابير وكلمات لو أجترأ أنجليزي على أستعمالها لعد حماراً سخيفاً ، مع أننا ننبش عن الكلمات المماتة في لغتنا ونستعملها لأبناء ١٩٥٣

والكلاسية في مصر ، كما نراها في أيامنا ، ليست لغوية أدبية فقط ، بل هي إجتماعية مزاجية ذهنية . فدعاتها مثلاً يهتمون كثيراً جداً بالتأليف عن الخوارج في أيام علي بن أبي طالب ، ويهملون التأليف عن الخوارج على الديمقراطية في أيامنا . وهم يدرسون رجال الأمس (والأمس هنا قبل سنة ١٠٠٠ ميلادية) ولايدرسون رجال اليوم.

وهم في أخلاقهم شرقيون ، وفي أقتصادياتهم زراعيون . وهم ينظرون إلى اللغة والأدب العربيين ، نظرة الراهب إلى الدين . فكما أن هذا ينزوي في صومعته ، ويقرأ كتبه بعيداً عن معمعة الحياة ، كذلك أولئك ينزوون في مكتباتهم ويدرسون الجاحظ ، ويحاولون أن يكتبوا مثله أو عنه . يكتبون عن الجاحظ بلغة الجاحظ ، ويثنون عليه ، أو ينقدونه بمزاجه وذوقه ومقاييسه

وهؤلاء الكلاسيون يجهلون أشياء كثيرة عن الدنيا . وأنا أؤكد أنهم سيضحكون مني حين أقول أنهم يجهلون :

١- أن الدؤدؤ قد أنقرض منذ مئة سنة بعبث الصيادين ، وأن إنقراضه خسارة فادحة للبشر جميعهم

٢- وأن الكيمياء الصناعية قد أوشكت أن تقرر إلغاء زراعة القطن من العالم كله ، ومن مصر

٣- وأن مشكلة الهند يجب أن تكون مشكلة كل رجل مثقف على هذا الكوكب

٤- وأن التكنولوجية تبشرنا بالوقت الذي يكفينا فيه شهر من العمل ، لكي نعيش ١١ شهراً في الراحة . أي في التعلم ، وزيادة الأختبارات والأستمتاعات

الكلاسيون هم رهبان الأدب العربي . واللهجة اللغوية التي تذونها في الكتابة ، قد أحدثت لهم لهجة ذهنية في التفكير . فهم

جامدون ، يخافون الدنيا . وهم أيضاً ، لهذا السبب نفسه ، يعرقلون تطورنا الأجتماعي والأقتصادي وتطور اللغة والأدب . يكرهون الكلمة الأجنبية ، فيقولون سيارة بدلاً من أتومبيل . ثم تنتقل هذه الكراهة إلى العالم الخارجي ، فلا ينبعثون إلى دراسة الصين أو الهند أو المانيا . ثم تنكمش أذهانهم ، وتعود الدنيا كلها وقد أنحصرت في أهتمامهم بدرس الأدب واللغة العربيين لا أكثر . ثم يزداد الأنزواء الرهباني ، فيتحدث الأديب التليدي العربي عن العالم العصري ، كما يتحدث الراهب عن فجور المدنيين الدنيويين . ثم بعد ذلك المقاطعة بين العقليتين

ولست أعني ، مع ذلك ، مقاطعة القديم . لأني أعرف أن هناك دماء معاصرين . أي أنهم على الرغم من سبقهم لنا بألف أو ألفي سنة، كانوا يعالجون شئوناً بشرية مازلنا نعالجها . وكانوا يحاولون رفع نسان إلى الأنسانية كما نحاول . وهؤلاء يعاصروننا ، على الرغم من مهم . وهم جديرون بدراستنا وأهتمامنا ، ولكن دون أن نجعل منهم حور والهدف لثقافتنا

أوجدين والأنجليزية الأساسية

تمتاز اللغة الأنجليزية بميزات عظيمة ، جعلت لها السبق في ميادين التجارة والصناعة والثقافة . ويبلغ الناطقون بها أكثر من مئتي مليون متعلم . ومن أعظم ميزاتها أن نحوها قليل القواعد ، حتى ليمكن الأستغناء عنه . وقد قال الفيلسوف هربرت سبنسر أنه لم يتعلم النحو قط، وأنه درس وألف في هذه اللغة دون أن يحتاج إلى دراسة النحو . ولايمكن عربياً أن يقول مثل هذا الكلام عن لغته

وميزة أخرى في اللغة الأنجليزية أنها غير جنسية . فالأشياء محايدة، ليست مذكرة أو مؤنثة . أما نحن فنحتاج إلى أن نعرف «جنسية» الحرب والسلم والأرض والجبل والميناء والكبرياء والروح والبيت الخ

ومع هذه السهولة لايزال المفكرون من الأنجليز يدعون إلى الزيادة في التبسيط . وقد قطعوا بعض المسافة نحو هذا الهدف ، فأصلحوا الهجاء ، وألغوا الحروف الصامتة . وهم ، بل وغيرهم من الأمم الأخرى، يفكرون في جعل اللغة الأنجليزية لغة كوكبية . ولأجل هذه الغاية وضع الأستاذ أوجدين ماسماه « الأنجليزية الأساسية » Basic English

والأستاذ أوجدين من علماء السيكلوجية . ومن أعظم مؤلفاته كتاب

« معنى المعنى » وهو في السيمائية ، أي علم المنطق اللغوي والأيضاح عن المعاني . وهو علم جديد تجهله اللغة العربية

ونزعة « اللغة الأساسية » تناقض النزعة العامة في لغتنا . ومن هنا قيمتها لنا ، لأنها تنبهنا بهذا التناقض . فأن الأستاذ أوجدين يرى أن الكلمات التي نحتاج إليها محدودة . وأنه خير لنا أن نعرف نحو ألف كلمة واضحة المعنى ، محبوكة ، من أن نعرف عشرة أضعاف هذا العدد من الكلمات التى يُحتَمل فيها الشك والألتباس . والتي تفسد التفكير وتعطل الذكاء

ثم هو يرى أن اللغة الأنجليزية جديرة بأن تعم العالم . وقد أحتال للوصول إلى هذا الهدف بأختيار ٩٤٦ كلمة ، يعتقد أنها تكفي للفهم في اللغة الأنجليزية . وهذه الكمات هي ٦٠٠ أسم و ١٥٠ نعتاً و ١٨ فعلاً و ٧٨ ضميراً وظرفاً وحرفاً

والقاريء يلاحظ قلة الأفعال . ولكن أوجدين يستغني عن الأفعال بأستعمال الأسماء الكثيرة مع أفعال قليلة . فبدلاً من أن أقول :

تعالجت من مرض ، أقول عملت العلاج بالمنزل

وقضيت ساعة بالمنزل ، « كنت ساعة بالمنزل

وسيزورني اليوم محمد ، « سيعمل محمد زيارة لي اليوم

ولما بلغت العاشرة من العمر ، « لما كنت في العاشرة من العمر

فيرى القاريء هنا ، أننا أستعملنا فعلي كان وعمل ، بدلاً من أربعة

أفعال . ويمكن كذلك أن نستعملها بدلاً من مئة فعل ، لأن الأنسان إما كائن وإما عامل . وفي اللغة الأنجليزية نحو أربعة آلاف فعل ، ولكن أوجدين أستغنى عنها كلها بهذه الأفعال التالية :

جاء . حصل . أعطى . ذهب . حفظ . ترك . صنع . وضع . بدأ . أخذ . كان . عمل . مَلك . قال . رأى . أرسل . أراد . ربما (وهي فعل في الأنجليزية)

وعلى هذا ، يمكن أن نجعل فعل « ذهب » يؤدي معاني ثلاثين فعلاً. فنقول : ذهب في (دخل) ، وذهب قبلاً (سبق)، وذهب من مكان إلى مكان (جول)، وذهب إلى الجانب الآخر (عبر)، وذهب إلى (زار) الخ . ثم هو ، أي أوجدين ، يستغني عن المترادفات أو ما يقاربها . فنحن نقول جلد الحيوان ، وفرو الثعلب ، ولحاء الشجرة ، وغلاف الزهرة، وقشرة الثمرة . ولكنه هو يقنع بكلمة « جلد » للجميع . فيحقق الأقتصاد اللغوي ، وهو بعض أهدافه . وهذه الكلمات تُحفظ في بضعة أسابيع أو أشهر . وليست هذه الكلمات بالطبع هي كل اللغة الأنجليزية، ولكن الأجنبي الذى يعرفها يستطيع التفاهم بها ، ويستطيع أن يقرأ بعض الكتب التي ألفت بها ، ثم يرتقي إلى معرفة اللغة الأنجليزية في توسع

وأمامي وأنا أكتب هذه الكلمات كتاب ألف على مباديء « اللغة لأساسية» يدعى «نمو العلم» تبلغ صفحاته ٣٧٢ صفحة متوسطة .

ومن فصوله : مقاييس القوة . الضوء الكهربائي . داروين ومابعده . المادة . العلاقات .

وبعض هذه الفصول يتعمق الفلسفة ، ولكنه كتب بالأنجليزية الأساسية . والقاعدة التي أتبعها أوجدين في أختيار هذه الأصول دون غيرها ، هى أنه وجد أنها أكثر أستعمالاً من غيرها في اللغة الأنجليزية . وهو بالطبع لايقول بالأكتفاء بهذه الكلمات ، ولكنه يقول بفائدتها للأجنبي ، الذي يجد اللغة ميسرة له ، لا يتغلق عليه فهم كلماتها . فهو يتحدث ويكتب ويقرأ بها . ويستطيع بعد ذلك أن يتوسع . ويقول أيضاً بفائدتها للأطفال الأنجليز المبتدئين ، لأنهم يستطيعون أن يقرأوا في موضوعات مختلفة ، دون أن تقف اللغة عائقاً في سبيل ثقافتهم ، تصدهم لأول أختبارهم لها

وهنا التناقض بين النزعتين : نزعة أوجدين في تعميم السهولة مع توخي الدقة في اللغة، ونزعتنا نحن في الأكثار من المترادفات وأستعمال الكلمات القديمة النادرة. حتى أننا نحتاج ، في كتب الأطفال، إلى أن نفسر لهم في الهامش بعض الكلمات . وكأننا بهذا العمل نحاول صدهم عن القراءة

وقد أشرت إلى هذه اللغة الأساسية ، لأني أرجو أن أرى قيمة هذا المجهود تناقش في لغتنا . ويجب أن أعترف أنه على الرغم من جميع الصعوبات التي تعترض التعبير الأقتصادي الصحيح في اللغة العربية،

قد أستطعنا أن نقطع مسافة غير قصيرة نحو هذا الهدف. والفضل الأول في هذا الميدان يعود إلى الجريدة اليومية ، التي يضطر كاتبوها إلى الأقتصاد في الكلمات . وأحياناً يترجمون التلغراف ، وهي بطبيعة الأجور العالية لكلماتها ، مقتصدة ، موجزة ، لاتتحمل المترادفات أو البهارج . وفضل آخر في هذا الميدان أيضاً يعود إلى المحاكم ، التي أجبرت القضاة والمحامين ورجال النيابة على استعمال لغة محبوكة المعاني بعيدة عن الشبهات والشكوك . وفضل ثالث يعود إلى نشر القليل من كتب العلوم المادية ، التي تطالب المؤلف بأستعمال كلمات قليلة تمتاز بدقة المعنى

ولكننا مازلنا في بداية الطريق . فأن أقتراح قاسم أمين بإلغاء الأعراب وإسكان أواخر الكلمات ، لم يلق أية عناية . وكذلك أستعمال الأرقام الأوربية ، كما يفعل أخواننا المغاربة في مراكش ، بدلاً من الأرقام العربية ، لا يجد القبول الحسن . مع أن الأرقام الأوربية أكثر أصالة في العربية من أرقامنا الحاضرة . وهي تمتاز بوضوح الصفر . كما تميز تمييزاً نيراً بين رقمي ٢ و ٣ ، اللذين يشتبهان عندما يطبعان بالبنط الصغير

والآن يجدر بنا أن نتساءل : ما الذي حمل أوجدين على التفكير في تأليف كتابه « معنى المعنى » وأيضاً على تيسير اللغة الأنجليزية للأجانب وللمبتدئين ، بالأقتصار على ٩٤٦ كلمة ؟

الذي حمله على ذلك أنه درس السيكلوجية ، وعرف منها القيمة الأجتماعية والثقافية للغة الأنجليزية . وجدير بنا أن ندرس لغتنا في ضوء السيكلوجية ، حتى نجعل التعبير العربي أيضاً ، كلمة وجملة ، وسيلة للخدمة الأجتماعية والثقافية . وربما يكون أوجدين قد بالغ في الأقتصار على ٩٤٦ كلمة . ولكن موضوع أهتمامنا هو هذه النزعة التي حملته على أختيار هذه الكلمات التى آثرها على غيرها ، لتيسير التعليم للغة الأنجليزية ، في حين نعمل نحن للتعسير

أليس من المستطاع أن نختار نحو ألف كلمة من اللغة العربية ، تمتاز بالوضوح والدقة والألفة ، فنؤلف بها كتباً للصبيان في المدارس الألزامية والأبتدائية في الجغرافية والتاريخ والحيوان والنبات ومبادىء العلوم . بحيث يدخل الصبي في هذه الميادين ، فيمرح فيها ، ويطلب المزيد . وبذلك نبعث فيه الأستطلاع والتشوف ، ونغنيه عن الدمع الغزير والعرق الوفير ؟ بل أليس من المستطاع أن تكتب بعض المجلات والجرائد بما نسميه « العربية الأساسية » لأفراد الشعب ، الذين لايعرفون من لغتنا غير ألف أو ألفي كلمة ؟

التفسير الأقتصادي للغة والأدب العربيين

كثير مما سنقول في هذا الفصل ، قد مر بالقاريء متفرقاً . ولكنا سنجمعه هنا ، لإبراز المعاني في ترسيم هذا الكتاب ، وإيضاح غايته

التفسير الأقتصادي هو الذي يعلل جميع الظواهر الأجتماعية في الأمة ، بالنظام الأقتصادي الذي يعيش أفرادها وفق مبادئه . وأجتماعهم يتغير بتغيره ، أو يركد بركوده . واللغة والأدب كلاهما ظاهرة أجتماعية ، لا تختلف عن الأخلاق والعقائد

ففي أمة صناعية ، مثل بريطانيا أو الولايات المتحدة ، نجد اللغة عصرية ، والأدب مستقبلياً ، والتفكير علمياً . وفي أمة زراعية ، مثل مصر ، نجد اللغة والأدب تليديين ، والتفكير عقيدياً أو سنياً

ولننظر النظرة التحليلية في ضوء «التفسير الأقتصادي للتاريخ» للغة والأدب العربيين

١- المجتمع العربي الذي ورثنا منه أدبنا ، ولغتنا الكتابية ، كان مجتمعاً إقطاعياً زراعياً ، أي كان يعيش أفراده بأمتلاك الأرض . وكان في أقله الذي لا يؤبه به ، تجارياً صناعياً . أي أن ٩٠ في المئة من العرب في مصر والعراق وسوريا وأقطار أفريقيا الشمالية ، كانوا يعيشون بالزراعة . ومن شأن الزراعة الجمود . فنحن نزرع القمح الآن كما كان يُزَرع قبل ألف أو ألفي سنة . فلم يكن هناك ما يدعو إلى

تغيير العقائد أو الأخلاق أو الكلمات الزراعية . ومن ثم لم يكن هناك ما يدعو إلى تغيير الأدب في مثل هذا الوسط . بل إن كل محاولة للتغيير كانت تجحد ، لأنها كانت تناقض الأستقرار الزراعي ، أي تناقض العيش

أستقرار في النظام الأقتصادي ، أدى إلى أستقرار (جمود) في النظام اللغوي والأدبي . فقواعد الزراعة ، التي جرى عليها المجتمع منذ ألف سنة ، يقابلها قواعد اللغة وأسلوب الأدب منذ ألف سنة . والكلاسية ، أي التليدية ، التي نعانيها في مصر الآن ، ليست لهذا السبب مفتعلة. بل هي طبيعية ، لأننا مازلنا نعيش في الوسط الزراعي إلى حد كبير

٢- هذا المجتمع العربي أيضاً كان مجتمعاً دينياً ، فكان الخليفة في بغداد بمثابة البابا في رومة . ومن غير المعقول أن نطالب أي دين إلهي في العالم بالتغيير . فأستقرار الدين أدى إلى أستقرار اللغة ، أي جمودها. وأصبح رئيس الدولة ، أي الخليفة ، يحمي الدين ، ويحمي الكلاسية، أي التليدية ، في اللغة . والعرش ينزع إلى الماضي ، لأن حقوقه تعود إليه . فهو محافظ ، وأحياناً جامداً . أي أن للعرش أصولاً أقتصادية سلفية ، تؤدي إلى مبادىء لغوية وأدبية كلاسية تليدية

وأذكر هنا ڤولتير ، يشمئز من ذكر الفأر على المسرح . لأنه كان

يعيش في ظل العرش الفرنسي ، بلا دستور وبلا ديموقراطية . وأذكر هنا أيضاً لغة الكهنة في المعابد ، فإن تغيير الكلمة هنا يعادل الكفر

والآن لماذا لا نرضى بلغتنا العربية . ولماذا يدعو قاسم أمين ، وعبد العزيز فهمى ، وأحمد أمين ، ولطفي السيد ، وبهي الدين بركات ، إلى أجراء تغييرات كثيرة أو قليلة في اللغة العربية ؟

السبب أن هؤلاء الرجال على وجدان بعصرهم . أي بهذا الوسط الصناعي العالمي الذى يغمر الوسط الزراعي ، ويتسلط عليه كما تتسلط بريطانيا الصناعية ، وعددها أقل من ٥٠ مليوناً ، على الهند الزراعية ، وعددها نحو ٤٠٠ مليون (سنة ١٩٤٥). وهم على وجدان بالنتائج الأجتماعية لهذا الوسط الصناعي ، وهي الديمقراطية والحرية ، والأعتماد على المعرفة دون العقيدة ، والتوسل بالعلوم إلى الرقي الأقتصادي والأخلاقي والثقافي . وليس من الضروري أن يكون هذا الوسط الصناعي سائداً في مصر . لأن هؤلاء المجددين الذين ذكرنا متمدنون ، ووسطهم الحقيقي هو هذا العالم كله . فهم يحسون تياراته ، وينفعلون بنزعاته . وأستطيع أن أقول أنا إن نزعتي إلى الحضارة الصناعية ، مع ما يجب أن يرافقها من ثقافة علمية ، هي التي تدفعني ، الرغبة في التغيير ، حتى تلائم ما أنشد من ثقافة علمية .

تطيع أن أقول إن عرقلة الصناعة المصرية منذ ١٩٠٤ ، حين وصف المصنع بأنه « محل مقلق للراحة الخ» قد عرقلت اللغة في

تطورها وحالت دون التفكير العلمي ، وأستبقت الكلاسية ، أي التليدية، في الأدب واللغة . وذلك لأن هذا القانون قد أستبقى الزراعة أسلوباً للعيش لأكثرية الأمة . فأدى أستقرار العيش ، إلى أستقرار الفقر ، ثم إلى جمود اللغة والأدب . ولولا هـذا القانون لتفشت الصناعـة ، وأستتبع تفشيها ثقافة علمية ، تطعم لغتنا بألوف الكلمات الجديدة

اللغة العربية في مدارسنا

القراءة أسهل بكثير من الكتابة الأنشائية ، كما يتضح هذا عندما نحاول أن نكتب بأحدى اللغات الأجنبية التي تعلمناها . فأنه يسهل علينا كثيراً أن نقرأ مؤلفاتها ، ولكننا حين نكتبها ، نجد الصعوبات الشاقة في تأليف عباراتها

ولهذا السبب يجب أن تكون الغاية الأولى من تعليم اللغة العربية في مدارسنا الأبتدائية الشعبية (أي المدارس التي يجب أن تتناول مئة في المئة من السكان) هي القراءة ، دون الكتابة التى يختص بها ٥٠ في المئة من السكان أو أقل . فأن العامل في المصنع أو المزرعة ، أو الخادم في المنزل ، أو مثل هؤلاء ، لايحتاجون إلى الكتابة إلا قليلاً جداً . ولكنهم ، كي يكونوا متمدنين ، يحتاجون إلى القراءة كل يوم . وحتى عندما يحتاجون إلى الكتابة ، نرضى لهم ، ونقنع منهم ، بما يعبر التعبير الساذج عن أفكارهم

ولسنا نعني أن هذه الحال سوف تكون دائمة . ولكنا نجد أننا في الوقت الحاضر في فاقة مادية وثقافية ، تحملنا على القنوع بتعليم القراءة للكافة من السكان ، ثم الأرتقاء منها إلى تعليم الكتابة الأنشائية للأقلية التي نحتاج إليها في المدارس الثانوية والجامعة

ولهذا السبب يجب أن نقتصر من تعليم اللغة العربية في مدارسنا

الابتدائية على تمكين التلميذ من المطالعة والفهم ، بلا حاجة إلى أية قواعد خاصة بالنحو . وليس عليه من حرج ، أن يقرأ فيرفع المفعول وينصب الفاعل ، مادام يفهم مايقرأ . حسبه أن يُسّكن آخر الكلمات ، كما نفعل نحن حين نقرأ . وبدلاً من هذه القواعد النحوية ، يجب أن يتعلم الصبي أكبر مقدار مستطاع من الكلمات التي ترد في الجريدة والمجلة والمتجر والمصنع والدكان والمنزل . ولهذا السبب يجب أن تتوافر لديه كتب المطالعة السهلة ، التي تغذو ذهنه بالمعارف الطلية عن حياته الأجتماعية والسياسية ، وعن العلوم والفنون

أما في المدارس الثانوية ، فنشرع في تعليم أقل ما يستطاع من قواعد النحو . ولا نبالي الأعراب الذي أثبت الأختبار أنه لافائدة منه بتاتاً . لأننا كلنا ، كما قلنا ، نقرأ أو نكتب دون أن نحتاج اليه . والوقف في أواخر الكلمات ، أي إسكانها ، هو الخطة السديدة التي يجب أن تتبع . وعندئذ يتوافر للتلاميذ الوقت لزيادة ما يدخرون من الكلمات . وهنا تدخل البلاغة ، ونعني بلاغة المنطق اللغوي ، للتمييز بين الكلمات من حيث الدقة والأقتصاد في التعبير . وليس من حيث ألاعيب الصغار عن الأستعارات والمجازات ، كوجه القمر ، وأنت بحر، وعلم من فوقه نار ، الخ

ويجب أن تكون لنا غاية أخلاقية في تعليم اللغة العربية إلى جنب الغاية الثقافية . وهي تعويد التلميذ القراءة ، حتى تعود حاجة ملحة

في نفسه ، لايستطيع الأستغناء عنها طيلة عمره . ولهذا يجب أن تكون لديه مئات من الكتب التي تبسط له المعارف البشرية ، في عبارة مقتصدة ، تفتح له آفاقاً جديدة في كل عام من أعوام دراسته . فتثير أستطلاعه ، وتحمله على البحث والتساؤل . ولهذا السبب يجب أن تتناول كتب المطالعة ، في المدرسة والبيت ، موضوعات البيولوجية والأجتماع والتراجم والكيمياء والفلكيات والأقتصاد والصناعة . والمألوف في الوقت الحاضر ، أن تحتوي كتب المطالعة للأقسام الثانوية مقطوعات أدبية من كتب العرب قبل ألف أو خمسمائة سنة . ولكن هذه الكتب لاتثير الأستطلاع ، ولاتحمل التلميذ على التساؤل والبحث والدراسة الذاتية . ولاتعوده القراءة بعد أن يترك المدرسة ، بل حتى بعد أن يترك الجامعة . ولذلك يجب أن تؤلف الكتب الجديدة في المعارف العصرية ، التى تستفز التلميذ إلى البحث

وهنا يجب أن نذكر حادثاً له قيمته هنا . فقد حدث أن قصد فوج من طلبة إحدى الجامعات في الولايات المتحدة إلى ألمانيا للتعلم . وكان منهم من شاء التخصص في اللغة والأدب ، ومن قصد إلى التخصص في العلوم ، كالكيمياء أو البيولوجية أو الطبيعيات . فبعد عام من الدراسة أتضح أن الذين قضوا عامهم في دراسة اللغة والأدب بالذات ، لم يحسنوا تعلم هذه اللغة ، لا كلاما ولا كتابة ، كما أحسنها أولئك الآخرون الذين قضوا عامهم في دراسة الكيمياء والبيولوجية

والطبيعيات . وذلك لأن الفريق الأول فضى وقته في دراسة نحو اللغة وبلاغتها ، في حين أن الآخرين قصدوا إلى مادة علمية درسوها بالألمانية ، فأتقنوا اللغة عن سبيل دراسة هذه المادة

ويجب أن نسترشد نحن بهذا المثل في تعليم اللغة العربية . فأننا نحسن تعلمها بقراءة الكتب التي تختلف موضوعاتها . لأن هذا الأختلاف في الموضوعات يخصب الذهن تفكيراً وفهماً ، كما أنه يوفر للتلميذ مئات الكلمات التي تثير أستطلاعه ، وتفهمه ، فيستزيد من القراءة ويستنير ، ويعرف اللغة . بل يعرفها هذه المعرفة المتفاعلة المتجددة مع مجتمعه وعلومه وفنونه . أما إذا قصرناه على دراسة القواعد النحوية والبلاغية وكتب الأدب القديم ، فأنه يزهد ويقل أستطلاعه ، أو ينعدم ، لأنه يجد أنه قد تعب في أستظهار كلمات لاتتفاعل مع مجتمعه وعلومه وفنونه

قلنا أنه يجب أن تكون لنا غاية أخلاقية في تعليم اللغة العربية ، هي تعويد التلميذ القراءة بحيث لايستطيع الكف عنها طيلة حياته . وغاية أخرى نتوخاها ، هي تكوين شخصيته بالمناقشة والخطابة . ولا نعني بالخطابة تلك الحركات المنبرية البهلوانية التي تعتمد على قوة الذراعين والحنجرة ، أكثر مما تعتمد على الفهم والتمييز . وإنما نعني أن نكثر من الموضوعات التي يطالعها التلاميذ مع المعلم ، فتنشأ المناقشة المنيرة التي يتعلم منها التلميذ كيف يناقش وينتقد

واذن يجب على معلم اللغة العربية في مدارسنا الأبتدائية والثانوية أن يكون موسوعي المعارف ، يستطيع الشرح للموضوعات الأجتماعية والبيولوجية والسيكلوجية والتاريخية والفلكية . وعليه أيضاً أن يعرف على الأقل لغة أجنبية أو لغتين ، كي يقارن بين العربية وبينهما ، ويجدد في لغتنا بمقدار أنتفاعه من الجديد فيهما . وأنه لزهو مضحك ، أن يعتقد أحدنا أن لغتنا تستطيع أن تعيش مستكفية ، لاتستمد التعبير الحسن من الأنجليزية أو الفرنسية . وأن عليها أن تجتر نفسها ، دون أن تتزود من المعارف العصرية . وهذا الأعتقاد من أكبر الأسباب للفاقة الثقافية التي نعانيها في وقتنا

الخط اللاتيني

إذا كان الأساتذة والطلبة في كلية الآداب في الجامعة ، أو في دار العلوم ، أو كلية اللغة العربية ، راضين عن اللغة العربية . فرضاؤهم يمكن أن يعلل ويفسر من الناحية الأقتصادية الأجتماعية ، ولكنه لايفسر من الناحية الثقافية . لأن هذه اللغة لاتُرضي رجلاً مثقفاً في العصر الحاضر . إذ هي لاتخدم الأمة ولاترقيها ، لأنها تعجز عن نقل نحو مئة علم من العلوم التي تصوغ المستقبل وتكيفه

وهذا السخط الذي يتولانا ، كلما فكرنا في حالنا الثقافية ، وتعطيل هذه اللغة لنا عن الرقي الثقافي ، تزيد حدته كلما فكرنا ، وأدى بنا التفكير ، إلى اليقين بأن إصلاحها مستطاع

والقلق عام ، ولكن الجبن عن الأبتكار أعم . ولذلك قلما نجد الشجاعة للدعوة إلى الأصلاح الجريء ، إلا في رجال نابهين لايبالون الجهلة والحمقى ، مثل قاسم أمين أو أحمد أمين ، حين يدعو كلاهما إلى إلغاء الأعراب ، أو مثل عبد العزيز فهمي حين يدعو إلى الخط اللاتيني

والواقع أن أقتراح الخط اللاتيني هو وثبة إلى المستقبل . لو أننا عملنا به ، لأستطعنا أن ننقل مصر إلى مقام تركيا ، التي أغلق عليها هذا الخط أبواب ماضيها ، وفتح لها أبواب مستقبلها

وأقتراح عبد العزيز فهمي يحتاج أولاً إلى العمل بألغاء الأعراب ، الذى تعلمناه ولكن لم نعمل به قط . وإلغاؤه يجعل الهجاء العربي في الخط اللاتيني سهلاً . ثم هو يغنينا عن وضع الحركات في أعلى وأسفل الكلمة ، لأن الحركات في الخط اللاتيني حروف تدخل في صلب الكلمة

ولننظر في بعض الميزات التي للخط اللاتيني

١- فأول ذلك أننا نقترب نحو التوحيد البشري . فأن هذا الخط هو وسيلة القراءة والكتابة عند المتمدنين الذين يملكون الصناعة . أي العلم، والقوة ، والمستقبل . وهذا الخط تأخذ به الأمم التي ترغب في التجدد ، كما فعلت تركيا . ومن المرجح أن يعم هذا الخط العالم كله قريباً

٢- حين نصطنع الخط اللاتيني ، يزول هذا الأنفصال النفسي الذي أحدثته هاتان الكلمتان المشئومتان « شرق وغرب ». فلا نتعير من أن نعيش المعيشة العصرية . ولابد أن يجر هذا الخط في أثره كثيراً من ضروب الأصلاح الأخرى ، مثل المساواة الأقتصادية بين الجنسين ، ومثل التفكير العلمي ، ومثل العقلية بل النفسية العلمية . الخ

٣- يمتاز الأوربيون بقدرتهم على إيجاد المعاني الجديدة ، بإلصاق مقاطع مشتقة من اللغتين الأغريقية واللاتينية ، فيخلقون المعنى الجديد من الكلمة القديمة . ونحن ننتفع بهذه المقاطع إذا أخذنا بهذا الخط . ولايمكن أن نستعمل هذه المقاطع ما دام الخط بالحرف العربي

٤- والكلمات العلمية التي تقف عقبة شاقة في لغتنا تغدو سهلة

الأستعمال بالخط اللاتيني

٥- ثم يجب ألا ننسى أن الخط اللاتيني لا يكلفنا في تعلمه عُشر الوقت الذي نقضيه في تعلم الخط العربي ، بل ربما أقل

٦- وعندما نكتب لغتنا بالخط اللاتيني ، نجد أن تعلم اللغات الأوربية قد سهل أيضاً ، فتنفتح لنا آفاق هي الآن مغلقة

وبالجملة نستطيع أن نقول ، إن إتخاذ الخط اللاتيني ، هو وثبة في النور نحو المستقبل . ولكن هل العناصر التي تنتفع ببقاء الخط العربي والتقاليد ، ترضى بهذه الوثبة ؟

التيسير ـ التيسير

إذا فرضنا أن صبيين في سن واحدة شرعاً يتعلمان ، أحدهما الأنجليزية والآخر العربية ، دون أن يكون لأحدهما معرفة سابقة باللغة التي سيتعلمها ، فأن الصبي الذي سيتعلم الأنجليزية ، لايحتاج لأكثر من ستة أشهر كي يتكلم ويقرأ ويكتب هذه اللغة على طريقة آوجدين . أما الصبي الذى سيتعلم العربية ، فأنه يحتاج إلى ما لايقل عن أربع سنوات . أي أن الوقت الذى يقضيه المتعلم للغة العربية ، يزيد ثمانية أمثال على ما يقضيه المتعلم للغة الأنجليزية

وكي نفهم هذا الفرق ، يجب أن نذكر بعض العقبات التي سيلاقيها متعلم العربية ، ولا يلاقي مثلها متعلم الأنجليزية . فأول ذلك أن حروف الكتابة تزيد عندنا على مئة حرف ، لأن لكل حرف شكلاً معيناً يتبع موقعه في أول الكلمة أو وسطها أو آخرها . أما في الأنجليزية فالحرف لا يتغير بتغير موقعه في الكلمة

وفي لغتنا يجب أن نميز الجنس ، فنعرف أن الكرسي مذكر ، والحرب مؤنثة . أما الأنجليزية فلغة غير جنسية

ومتعلم الأنجليزية يعرف أن الواحد مفرد ، وما زاد عليه فجمع . ما متعلم العربية ، فيجب أن يعرف أن مازاد على واحد قد يكون نين ، فهو ليس مفرداً ولا جمعاً ، بل هو صيغة خاصة تحتاج إلى

قواعد خاصة . وقد كانت صيغة المثنى قائمة في الأنجليزية ، ولكنها ألغيت . والصبي الذي يتعلم الأنجليزية يستطيع أن يُعبِّر عن العدد من واحد إلى ألف بسهولة ، أما في العربية ، فالصبي يحتاج إلى شهور لكي يدرس قواعد العدد . وصبياننا في المدارس الثانوية يعدون بالفرنسية والأنجليزية ، ولا يعرفون كيف يعدون بالعربية ، للمشقة التي يلاقون في قواعد العدد

والصبي في الأنجليزية يجد قاعدة واحدة للجمع ، مع شواذ قليلة جداً لا يؤبه بها . أما في العربية ، فعندنا من جمع التكسير قواعد لاتحصى. بل يكاد أن تكون لكل كلمة قاعدة . والمعرفة التامة لجمع التكسير تحتاج إلى العمر كله ولو كان مئة سنة

وكل كلمة أنجليزية آخرها سكون . ولكن الأعراب في لغتنا هو لعبة بهلوانية للذهن واللسان . ولن نحسنها إلا بعد أن نربي عضلات قوية تستجيب بسرعة . وكثيراً ما رأينا أن القاريء الذى يلتفت إلى الأعراب، لا يفهم ما يقرأ وهو يعرب

ومشكلة الهمزة في لغتنا ليس لها نظير في اللغة الأنجليزية . كما أننا يجب أن نعرف الفرق بين الألف المقصورة والألف الممدودة . والمتعلم للأنجليزية لايجد مثل هذه المشقات

وأكثر من ذلك ، حركات الحروف في الكلمة الواحدة التي ربما تتألف من ثلاثة حروف ، ولكن يمكن أن تُنَطق على أثنى عشر شكلاً مختلفاً .

وهذا الأختلاف يحتاج ، مثل جمع التكسير ، إلى العمر كله ولو كان مئة سنة ، كي نحفظ لكل كلمة شكلها . أما الذي يتعلم الأنجليزية فلا يحتاج إلى هذا ، لأن الحركات قد صارت حرفاً في صلب الكلمة

وهناك قواعد أخرى للمترفين في اللغة ، كالتنوين والتصغير ، يحتاج الذي يتعلم العربية إلى شهور لدرسهما . أما متعلم الأنجليزية فلا يحتاج إلى شيء من هذا

ثم يجب ألا ننسى بعد كل هذه المصاعب ، أن الصبي الذى يتعلم الأنجليزية ، سيجد أن ما تعلمه يخدمه في الكلام والكتابة . ولكن الصبي الذى تعلم العربية ، يحتاج إلى أن يعرف اللغة الدارجة للكلام ، ثم اللغة الفصحى للكتابة . وهذا مجهود آخر

والذى نلاحظه في مصر ، أن الذى يلتفت إلى اللغة العربية ، ويستوفي قواعدها دراسة ، يحتاج إلى العمر كله . فلا يجد الوقت لأية دراسة أخرى إلى جنب اللغة

وليست اللغة سوى وسيلة للفهم والدرس . فإذا كانت تحتاج إلى السنوات الطويلة لدراستها ، فإن هذه السنوات محسوبة علينا . وهي مقتطعة من الوقت الذى كان يمكن أن نرصده لدراسة الجغرافية أو التاريخ أو الأدب أو الجيولوجية أو الفلكيات أو الطبيعيات أو الكيمياء الخ . وذلك المسكين الذي يقضي عمره في دراسة اللغة دون غيرها ، إنما هو بمثابة ذلك الذي يكد طيلة عمره لشراء آلة للغزل أو

النسج ، حتى إذا إشتراها لم يغزل ولم ينسج . لأن اللغة آلة ، ولايمكن أن نفرح بأقتناء الآلة ما لم نستخدمها

وإذن يجب أن تكون الغاية من دراسة اللغة ، التعبير عن الچيولوچية والفلكيات والطبيعيات والكيمياء الخ . أما إذا كانت دراستها لا تؤدي هذه الغاية ، فهى عقيمة . وهي لن تؤديها ما دامت كثيرة القواعد والشذوذات ، وما دامت تحتاج إلى السنين الطويلة والجهد العظيم لدراستها . لأن هذه السنين الطويلة ، وهذا الجهد العظيم، يجب أن ننفقهما في دراسة هذا الكوكب : ناسه ، وحيوانه ، ونباته ، ومواده ، وحضارته ، وعلومه ، وآدابه ، ومستقبله

وإذا كان أوجدين قد أحتاج إلى ١٨ فعلاً فقط لكي يصل إلى التعبير عن الحاجات المألوفة في اللغة الأنجليزية ، فأننا يجب ألا نفخر بأن عندنا عشرة آلاف فعل . لأن هذه الكثرة ليست وفرة الثراء ، وإنما هي زحمة وأختلاط

وإذن يجب أن نتجه نحو التيسير لا التعسير في تعليم اللغة العربية. نقنع بأقل ما يمكن من القواعد ، ونرفض كل ما يمكن من الشذوذات . ونختار من هذه الألوف من الكلمات نحو ألف كلمة للتعبير الدقيق في العلم والأدب والفلسفة ، ونؤلف بهذه الكلمات كتباً لصبياننا في المدارس الأبتدائية والثانوية . ثم نرتقي من هذه الكلمات إلى غيرها ، ولكن مع الحرص على أن نتجنب الكلمات السائبة التي

يغمض معناها ، لأنها تضلل بدلاً من أن ترشد

وربما يكون من الحسن أن نميز بين القاريء والكاتب في تعلم اللغة العربية . فاذا كانت الغاية من التعلم هي القراءة فقط ، فإننا نستطيع أن نصل إلى ذلك بلا قواعد نحوية . وجمهور الأمة يقرأ ولا يكتب . ثم نُقصر تعلم القواعد ، بعد التيسير ، على الذين سيكتبونها

وليس لهذا التمييز شبيه في لغات العالم المتمدن ، ولكن لغتنا شاذة في صعوبتها ، وتحتاج إلى إجراء شاذ

ثقافة إقطاعية وأدب إقطاعي

يمكن أن نقول إن النظام الأقطاعي هو نظام الزراعة القديمة ، حين كان المالك أميراً أو نبيلاً ، أو ثرياً له المقام الفعلي للأمير أو النبيل

فقد كان للأمير الحق في أن يربط فلاحيه بأرضه ، فإذا فر أحدهم أستعاده وعاقبه . وكان الخليفة أو الملك ، يُقطع الأمير أو النبيل أرضاً قد تبلغ مساحتها ألف فدان . ويلحق بهذه الأرض عمالها

وظني أن هذا النظام كان سائداً في أوربا والشرق على السواء في القرون المظلمة (بين سنة ٥٠٠ وسنة ١٠٠٠ للميلاد) . ثم بدأ ينهار رويداً رويداً ، وكانت روسيا في القرن الماضي آخر من ألغاه

وظني أيضاً أنه كان على أثقله وأظلمه في أوربا مدة القرون الوسطى ، أكثر مما كان في أمم الشرق العربي . إلى أن تولى الأتراك الحكم ، فصار في أمم الشرق العربي أسوأ وأثقل ظلماً مما كان في أوربا

وكلمة إقطاع تسمى في أوربا ، حين نعني النظام « فيوداليتيه »

وهذه الكلمة مشتقة من « فيودوم » اللاتينية ، بمعنى الماشية أو الملك . وكلمة فدان عندنا تعني الماشية أو الملك . ويستطيع أي قاريء عربي ، أن يجد هذا المعنى في أي معجم عربي . أما معنى المساحة الذى ننسبه إلى هذه الكلمة ، فليس له أساس في الأصل اللاتيني

ومعنى هذا أن نظام الأقطاع قد ساد في مصر قبل دخول العرب . ولكنني أظن أن العرب قد خففوه ، ثم عاد بقوته في الظلم والظلام أيام الأتراك والمماليك

وكانت ثقافة هذا النظام في الشرق العربي ، تشبه ثقافته في أوربا أيام القرون الوسطى . أي كانت ثقافة إقطاعية

الثقافة الأقطاعية هي ثقافة الأستقرار والركود والسكون ، وليست ثقافة الحركة والنهضة والتغير والتطور

الثقافة الأقطاعية ، سواء في أوربا أو في الشرق العربي أيام القرون الوسطى ، هي تأليف الكتب في العقائد الدينية والمناقشات الدينية . ثم درس القدماء ، مثل الأغريق ، والأستعانة بأساليبهم الجدلية لتأييد الدين . مثال ذلك أن أبن رشد ، على الرغم من نوازعه التجديدية ، يقول عن أرسطو طاليس أنه أعظم عقل ظهر في الدنيا . وكذلك البرلمان الفرنسي في القرن السادس عشر ، قد سن قانوناً لمعاقبة كل من ينتقد أرسطو طاليس بالحبس

إحترام القدماء بأشخاصهم وعقائدهم ، هذا هو المبدأ الأول في الثقافة الأقطاعية . وليس لنا أن نستغرب ذلك . فأن نظام الأمتلاك الأقطاعي ، وأستعباد الفلاحين ، إنما ينهضان على التقاليد والتاريخ . وكلاهما قديم . ولذلك يتساوق تفكير الكتاب والأدباء مع الحال الأجتماعية القائمة

أحترام اللغة القديمة ، وأحترام التقاليد القديمة ، وعبادة السلف الصالح ، وكل ما يتصل بهذه الأتجاهات ، تنبني منه الثقافة الأقطاعية. وهي بالضرورة يجب أن تكون ثقافة راكدة ، لاتنطوي على معنى الأرتقاء أو التطور ، لأن فيهما معنى التغيير للمجتمع ، هذا التغيير الذي لم يكن من المستطاع التفكير فيه

وإذا كنا نجد تفكيراً إرتقائياً في أبن حزم ، أو أبن خلدون ، أو أبن رشد ، أو أبن ميمون ، أو غيرهم ، فأنه مما لاشك فيه إنهم كانوا متأثرين بوسط آخر غير الوسط الأقطاعي الزراعي . فأن أبناء أبن ميمون مثلاً كانوا يقومون بالتجارة ما بين الهند والأندلس ، أي أن عقليتهم كانت تجارية

أما حين يكون الوسط إقطاعياً ، فإن من المحال ، أو يكاد يكون من المحال ، أن يظهر أديب يفكر في المستقبل ، أو الأرتقاء والتطور ، اللذين لا يدخلان في ضمير الكاتب أو الشاعر أو الأديب ، إلا في وسط تجاري أو وسط صناعي

وقد أنجبت الأوساط التجارية عند العرب والأوربيين بعض الكتاب المبتكرين ، ولكن في قلة غمرتها الأخلاق والأساليب الفكرية الأقطاعية

* * *

حين يتغير الوسط الأجتماعي الأقتصادي ، بأن تنتقل الأمة مثلاً من أنتاج الموارد الخامة الزراعية ، كما كنا نفعل إلى وقت قريب ، إلى

أنتاج المصنوعات والأخذ بالتجارة ، تتغير أيضاً الثقافة . من أحترام القدماء في الأدب ، وألتزام اللغة القديمة ، ومدح الملوك والأثرياء والأعيان بالخرافات ، والتهالك على الألقاب . إلى أدب جديد ، يُدخل الشعب ، بل المرأة أيضاً ، في حسابه . لأن الشعب يبقى منسياً طوال الأنتاج الزراعي الأقطاعي ، ولكنه يظهر في نظام الصناعة والتجارة . هذا النظام الذي يدفع المرأة أيضاً إلى العمل والأنتاج في المصنع والمتجر ويحررها

وهذا الأدب الجديد ، يشرع في التساؤل عن قيمة التسليم المطلق بحكمة القدماء وأساليبهم في العيش ، بل فلسفة العيش . ثم يشرع في النظر إلى المستقبل . لأن الأبتكار المطرد في الصناعة ، يبعث في نفس الأديب إحساس الأبتكار أيضاً ، والأيمان بأن الأرتقاء ممكن

ولكن عندما يتغير نظام الزراعة الأقطاعي ، يبقى التفكير الأقطاعي جملة سنوات قبل أن يتغير . وهذه هي حالنا الآن

فنحن قد شرعنا في تغيير أسلوبنا في العيش ، شرعنا فقط ، ونحاول أن ننتقل من الزراعة إلى الصناعة . ولكن كتابنا وشعراءنا وأدباءنا لا يزالون يتعلقون بالقيم الأقطاعية : أحترام القدماء بأشخاصهم وعقائدهم

وعندما أجد في مصر كاتباً يكره الشبان ، ويصفهم بالنزق لأنهم يجرءون على أستعمال حريتهم ، أو لأنهم يهملون عادات القدماء ، أو

حين يخشى المستقبل كما يخشى حرية المرأة والمساواة بين الجنسين ، عندما أجده على هذه الحال أسأل : هل هو نشأ في الريف ، حيث الوسط الأقطاعي ؟ هل هو يملك عزبة ، ويعيش منها ؟ هل هو من الوارثين لأرض زراعية ؟

والأغلب أني أجده كذلك

أي أجد أنه نشأ في وسط حضارة زراعية إقطاعية ، قد تخلق بأخلاقها وأخذ بقيمها . فهو يحب الشعر في مدح الملوك . بل هو لا يخجل ، إذا كان شاعراً مثل علي الجارم ، من أن يؤلف قصيدة يزعم فيها أن الجمل قد خرج من المجزر ناجياً بنفسه ، مستغيثاً بفاروق في قصر عابدين . وهو يتعلق بالأساليب القديمة عندما يكتب . وهو يؤلف عن القدماء . بل هو يدخل في مناقشاتهم بشأن العقائد ، كما لو كان يعيش في عصرهم . ثم هو يسب الشبان . ويستصغر شأن المرأة ، بل يحتقرها . وأخيراً يحتقر المستقبل ، ويقول بالعودة إلى أساليب العيش في الماضي

وعندنا أدباء ، أو بالأحرى كتاب ، على هذه الحال . قد تغيرت حضارتنا التي يعيشون فيها إنتاجاً وإستهلاكاً ، ولكن عقولهم لم تتغير . إذ هي تحيا على الثقافة القديمة ، بالأخلاق القديمة والقيم القديمة. ولذلك كثيراً ما أشتبك في مناقشة مع أحد هؤلاء الكتاب ، فيعمد من فوره إلى أساليب القدماء ، ويجادلني بكلمات الدين . حتى

لقد وصفني أحدهم بأني «غير عربي » . أي أني قبطي . أى مسيحي. وهذا هو بلا شك أسلوب القدامى ، حين كانت العقائد الدينية كل الثقافة . ولا ثقافة غيرها . وهذا الألتجاء إلى سلاح الدين ، يتساوق مع سائر مبادئه في الثقافة الأقطاعية . إذ هو يكره حرية المرأة ، ويكره حرية الشبان ، ويكره المستقبل ، حتى ليستصغر شئون العلم

أليس العلم للمستقبل ؟

الجمود الحاضر في اللغة العربية ، من حيث الكراهة للكلمات العلمية ، وكراهة أستعمالها بأسمائها التي سماها بها مخترعو الآلات أو مكتشفو العناصر والأشياء ، ثم بعد ذلك كراهة أي تغيير في كتابة حروفنا الناقصة ، التي لا تخدمنا الخدمة اللازمة في عصرنا . هذا الجمود ، هو إحدى صفات الثقافة الزراعية الأقطاعية الراكدة

أنهم يكرهون المستقبل . ويكرهون الشبان . ويكرهون المرأة . ويكرهون العلم . ويكرهون العقل . ويكرهون التطور . ويؤثرون على كل ذلك العقيدة

إنهم عبء علينا ، وحجر طاحون معلق بأعناقنا ، يعوق حركاتنا الأرتقائية

* * *

أعتبر مثلاً مسألة الحروف العربية والحروف اللاتينية

فنحن حين أنتقلنا من البيئة الريفية إلى سكنى المدن وركوب الترام

والقطار والأتومبيل ، بل الطائرة ، أحتجنا إلى أن نبذل نشاطاً أكثر . كما أحتجنا إلى أن نتخفف من الملابس . فأتخذنا البنطلون ، لأنه يزيد حرية الحركة في الساقين . وتركنا الجلابيب والقفاطين التي كنا نلبسها في القرية . ولاتنس أيها القاريء المشابهة بين جلابيبنا وقفاطيننا السابقة ، وبين ملابس النساء . فأنها جميعها فضفاضة ، توحي الراحة والدعة ، ولا توحي النشاط والحركة . أليس الجلباب أليق للنوم والركود، منه للسعي والتنقل ؟

ثم أن للجلباب في المصنع خطره . وهو أحياناً خطر، حتى حين نركب الترام . لأن قماشه الفضفاض يمكن أن يتعلق بأي شيء ، وأن يدوسه آخر . فنجد الخطر . ونحن لذلك ، أو أكثرنا ، نسلم بأفضلية البذلة الأوربية على جلابيبنا وقفاطيننا ، لأننا نعيش في المدن وليس في القرى

وكذلك الشأن في الحروف اللاتينية . فأنها اللباس العصري للأفكار العصرية ، أي للأفكار العلمية . ذلك أن الكلمة العلمية تُشتق من أصول ، وتُركب من مقاطع ، تُدل على معناها لأول نظرة . كما أن النطق بحروفها اللاتينية لايتميز ، لأن هناك ستة حروف للعلة تضبط النطق

وكما أن عندنا ناساً لايزالون يتعلقون بالملابس الشرقية الفضفاضة ، لانهم يحبون حياة الدعة ، ولايحتاجون إلى نشاط . كذلك عندنا ناس

يكرهون الحروف اللاتينية ، لأنهم لم يقرأوا كتاباً واحداً في حياتهم . فلا يفهمون معنى الدقة العلمية في التعبير

وهؤلاء أيضاً عبء علينا ، وحجر طاحون معلق بأعناق أرتقاءنا

حاجتنا الحتمية إلى الحروف اللاتينية

عشت حتى رأيت نجاح الدعوة التي قمت بها منذ أكثر من ثلاثين سنة ، حين قلت ، وأعدت القول إلى حد الهوس ، بأن الأمم المتمدنة لا تتفوق على الأمم الشرقية إلا بالصناعة . وبالصناعة فقط . وأن كل مانجد عندها من أخلاق عقلية ، وحريات للرجل والمرأة ، وعلوم وفنون ، كل هذا إنما يرجع إلى أثر الصناعة . وأن أمة صناعية لايزيد عدد أفرادها على مليون واحد ، تستطيع أن تكتسح ، أو إذا شاءت ، أن تستعبد ، أمة زراعية عددها عشرون أو ثلاثون مليوناً

إني أكتب هذه الكلمات والشعب يكتتب في مصنع الصلب

أتدري ماهو الصلب ؟

هو المدافع والطائرات والدبابات للقوة . وهو آلات الزراعة والري والحصاد . وهو آلات الأنتاج التي ستخرج لنا الأقمشة والأحذية ، وستصنع لنا حديد البناء ، وقاطرات السكك الحديدية والسيارات . وهو القوة في الحرب ، كما هو الحضارة في السلم

هو التمدن ، لأنه سيكسبنا أخلاق المتمدنين . أخلاق العلم ، أخلاق العقل

وهو الذي سينزعنا من الأخلاق الزراعية الأقطاعية ، أخلاق العقائد والتقاليد ، والنظر إلى الخلف والماضي ، إلى النظر إلى الأمام والمستقبل

الصناعة حضارة ترافقها ثقافة

وثقافة الصناعة هي العلم ، الذي يغذيها ويدعمها ، ويكشف لها ، ويخترع

الصناعة ، أسلوب للعيش والأنتاج والأرتزاق

والثقافة هي الكتب والمعارف العلمية التي تبعث على إتقان الصناعة والأختراع فيها

وإذن نحن في حاجة ، بل حاجة ملحة ، إلى ثقافة علمية

ويبدو لي أني سأقضي سائر عمري في المستقبل في الدعوة إلى العلم ، كما قضيت عمري الماضي في الدعوة إلى الصناعة

ونحن في مصر نحيا في حلكة من الجهل ، لايكاد ينفذ إليها شعاع من العلم . هذا العلم الذي تؤلف عنه ألوف الكتب ، وتصدر في شرحه ألوف المجلات ، في جميع عواصم أوربا وأمريكا . بل لقد شرعت عواصم الهند والصين ، ومن قبل ذلك اليابان ، في التنوير ، بل في التثقيف العلمي

ولأننا نجهل العلم ، نجد ناساً فارغين يتحدثون عن الأدب كما لو كان شعوذة ولهواً . بل إن منهم من يجد العلم في تصغير محطة إلى محيططة ، وقلب الواو ياء . ووصف الخادمة بأنها خادم فقط بلا تاء . وكأن هذه الشعوذة هي رسالة حياتهم في هذه المدنية . أما صنع طائرة تستولي على السماء ، أو الأستعداد لغزو القمر ، أو إطالة عمر

الأنسان إلى مائتي سنة ، أو الغاء حرارة الصيف وبرودة الشتاء من المدن ، أو زراعة البحار ، أو صنع اللحم من الخشب ، كل هذا عندهم هراء صبيان . وإنما الجد الخطير في حياتنا ، أن نعرف أن تصغير محطة هو محيططة

إن أوربا في نهضة علمية منذ ٥٠٠ سنة ، ولن ننتظر ٥٠٠ سنة حتى نبلغ مكانتها . ولذلك يجب أن نجري بدلاً من أن نمشي ، بل أن نثب بدلاً من أن نجري

ولكن هل نستطيع أن ندرس العلوم في لغتنا ، بحيث تسير الثقافة العلمية جنباً لجنب مع الصناعة أو الحضارة العلمية ؟

أجل . نستطيع . ولكن ليس مع الحروف العربية الحاضرة . لسبب واحد ، هو أن العلوم الأوربية والأمريكية ، وليس في العالم غيرها ، تعتمد في تكوين كلماتها التي تعبر عن معانيها العلمية على الأشتقاق اللاتيني في الأكثر ، والأغريقي في الأقل

تكوين الكلمة ، بالأعتماد على أصل مشتق من هاتين اللغتين ، ينير المتعلم ، ويجعل الفهم ممكنناً ، وأيضاً سهلاً . لأن النظرة الأولى للكلمة توضح وتشير

وهناك بالطبع أتجاه إلى ترجمة الكلمات العلمية بكلمات عربية . وهذا مجهود ضائع ، وهو كمن يحاول عبور الأقيانوس بالسباحة . فإننا نستطيع أن نسبح على شاطيء الأقيانوس الأطلنطي ، ولكننا لن

نستطيع السباحة من الشاطيء الأفريقي إلى الشاطيء الأمريكي

وهذا شأننا في الكلمات العلمية

فأن هنالك نحو خمسين ألف أو ستين ألف كلمة لايمكن بتاتاً أن نقوم بترجمتها ، أي إيجاد أو أختراع كلمات عربية تدل على معانيها . بل أني أتهم من يحاول هذه الترجمة ، بأنه يعمل من حيث لايدري ، على تأخير نهضتنا العلمية

وهذا هو مايفعله المجمع اللغوي

ألم ينشأ المجمع اللغوي في عصرنا الزراعي الأقطاعي ؟

قد تقول : ولم لا تُنَقل الكلمات العلمية كما هي في اللغات الأوربية. فنقول مثلاً بنسيلين وزولوجية وأكسيد الخ

والجواب : إننا نفعل ذلك الآن ، ولكن مع الخيبة والفشل

ذلك لأننا لم ندرس أشتقاقات الكلمات . وحتى حين ندرسها ، لانستطيع أن نتعرف عليها في هجاء الحروف العربية . ذلك لأن حروف العلة عندنا ثلاثة ، في حين هي ستة عند الأوربيين . ولذلك لانخطيء النطق عندما نرى الكلمة العلمية في حروف أوربية ، ولكننا نخطئها حين نقرأها في حروف عربية . ولذلك لانفهم أشتقاقاتها عندما نقرأها في لغتنا

وأتخاذ الحروف اللاتينية ييسر لنا درس اللغات الأوربية التي ينطق بها قرابة ألف مليون إنسان . وبذلك تنبسط لنا آفاق رحبة من الثقافة

التي نجهلها

وليس علينا عار في ذلك . فأن مصر أتخذت قبل ألفي سنة الحروف الأغريقية ، بدلاً من الحروف الهيروغليفية

وأوربا أتخذت الأرقام العربية ، بدلاً من الأرقام اللاتينية

والعرب أتخذوا الأرقام الهندية ، بدلاً من الأرقام العربية . وهي ما يسميها الأوربيون الآن « عربية »

والعلوم تحتاج إلى الدقة . وقبل كل شيء الدقة

ولغتنا ، بنقص حروف العلة ، وأيضاً خلوها من الزّوائد والأصول المشتقة من اللغتين اللاتينية والأغريقية ، لايمكنها أن تفي بحاجاتنا في التعبير العلمي

إننا ، بالصناعة ، قد شرعنا في أن نحيا حياة عصرية بدلاً من الحياة التقليدية ، التي كنا ومانزال نحيا فيها . ولذلك نحتاج إلى ثقافة علمية تؤيد وتدعم حياتنا الجديدة ، حياة المجتمع العلمي ، والبيت العلمي ، والنقل العلمي ، والمنطق العلمي ، واللغة العلمية

إننا سننهض بالصناعة إلى مستوى الحضارة العصرية

ولكن الصناعة ستبقى أجنبية عنا ، لا نفهم رطانتها ، مادمنا لا نؤلف إلى جنبها ثقافة علمية تساوقها وتسايرها وتدفعها . ولن يمكن التأليف العلمي باللغة العربية بحروفها الحاضرة

ثقوا أن هذا محال . ومن يقل غير ذلك ، إما أنه ضال ، وإما أنه

مضلل

أسالوا كلية الطب ، أسألوا كلية الهندسة ، أسألوا كلية الزراعة ، أسألوا كليات العلوم جميعها

إنها جميعاً تدرس علومها باللغة الأنجليزية . لماذا ؟

لأن لغتنا العربية بوضعها الحاضر ، وأعتمادها على الحروف العربية، لا يمكنها أن تؤدي هذه الخدمة

ومادمنا على هذه الحال ، فلن تكون في بلادنا نهضة علمية . ثم لن ترتقي الصناعة وتغدو شعبية

وإنما تكون هذه النهضة ، حين نتخذ الحروف اللاتينية . أي لن تُستَعرب العلوم إلا إذا أستَلتَن الهجاء العربي . وأرجو ألا يشهر أحد في وجهي سلاح الدين . فأن المسلمين (في ١٩٤٥) يبلغون ٣٠٠ مليون ، لا يكتب اللغة العربية منهم سوى ٦٠ مليوناً . ثم أن الهجاء في اللغة التركية المسلمة لاتيني

المؤلفون المصريون يؤلفون بالأنجليزية

قبل نحو خمسين سنة ، دعت الحكومة الأيطالية أسماعيل سري (باشا ، والد حسين سري) للسفر إلى أيطاليا ومعاينة نهر البو . وذلك كي يكتب تقريراً عن الممكنات المائية لهذا النهر ، وطرق الري التي يستطيع هذا المهندس المصري العظيم أن يشير بها على الحكومة الأيطالية ، حتى تزرع وتفلح أرضها وتستغل نهرها

وسافر هذا المهندس المصري ، وبقي نحو عام يدرس هذا النهر . ثم ألف كتاباً علمياً عن الزراعة والري لوادى البو . ويمكن المستطلعين أن يسألوا أبنه عن هذا الكتاب ، أو يبحثوا عنه في المكتبات

ولكن بأي لغة ألف أسماعيل سري هذا الكتاب ؟

باللغة الأنجليزية

هنا رجل مصري ، على كفاءة علمية عظيمة ، تدعوه دولة أجنبية كي تستشيره في تعمير بلادها . فيؤدي المهمة على الوجه الكامل ، ولكن ليس بلغة بلاده ، وإنما بلغة أجنبية

الكفاءة موجودة . ولكن اللغة العربية ، بسبب هجائها الحاضر ، ليست كفئاً للتعبير

وهذه حال رجال العلم جميعهم في مصر

هذه هى حال المؤلفين المصريين ، الأطباء والزراعيين والبيولوچيين

والچيولوچيين وغيرهم . فقد رأيت لهم مؤلفات غاية في الدقة العلمية ، مع الأحاطة والإيجاز ، أو البسط والتوضيح ، بالرسم وبالصورة ، ولكنها كلها بالأنجليزية

إننا لا ننكر قدر العلميين في مصر ، ولكننا نشكو فقر اللغة . بل ماذا أقول ؟

لا . ليست اللغة العربية فقيرة في التعبير ، وإنما حروفها هي التي تعجز برسمها الحاضر عن التعبير . ذلك أن حروف العلة فيها ثلاثة فقط، في حين هي في اللغات الأوربية ستة . ثم ، لأن حروفنا ليست لاتينية ، فأن الكلمة العلمية يستغلق علينا فهمها حتى حين نكتبها ، كما هي غير مترجمة ، بالحروف العربية

ثم فوق ذلك ، جاء مجمع اللغة العربية فجعل الطين وحلاً ، بأن عارض التعريب . وأصر على ترجمة الكلمات العلمية . أي أختراع كلمات عربية تؤدي معاني المكتشفات والمخترعات الأوربية

ومن هنا هذا العجز البالغ ، العجز الخطر ، في التأليف العلمي في بلادنا

نحن في نهضة كبيرة أو صغيرة في كل شيء إلا في العلم ، لأن مجمع اللغة العربية يقاطع الكلمات العلمية ، ويصر على الترجمة دون التعريب . وأيضاً يعارض في جعل الهجاء العربي بالحروف اللاتينية

إن قلبي يبكي لهذه الحال

عندنا الرجال ، عندنا الكفاءة ، عندنا الحاجة إلى التأليف ، ولكننا لا نعرف كيف نكتب سطراً واحداً من الطب وغير الطب باللغة العربية

إن أبناءنا ينشأون غير علميين . وهذا المجتمع العلمي ، وهذه الأخلاق العلمية ، وهذا الطب العلمي ، وهذه الهندسة العلمية ، وهذه الزراعة العلمية ، كل هذا لن يتحقق ، لأننا نعجز عن تأليف الكتب العلمية عنها بلغتنا كما هي بحروفها الحاضرة

وخطر هذا واضح . بارز . بل فاضح

ذلك أنه تجاورنا أمة علمية ، قد أنشأت مجتمعاً علمياً . وهي تطمع وتطمح . وتنشد آفاقاً في المستقبل ، وتحسب

إننا في خطر ، إذا لم نهيء للعلم جميع أسبابه

وأعظم أسبابه هو اللغة . وقد قيدنا لغتنا بحروف تمنعها هي من التعبير العلمي . أي تمنعنا نحن من الرقي

* * *

عندما نتخذ الحروف اللاتينية ، ننتقل نحو ألف سنة إلى الأمام . ذلك أننا نستطيع أن نترجم بمتوسط كتاب في العلوم كل يوم . فلا تمضي علينا سنتان حتى نكون قد عبرنا الجسر بين القرون المتوسطة والعصر الحديث

نترجم للشعب الكتب التي تجعله يكف عن الإيمان بالخرافات والغيبيات ، والتي تجعله ينشد المعيشة العلمية في المجتمع العلمي

ونترجم للفنيين ، حتى يتعلم أبناؤنا بلغتنا العربية . أجل . ونكذب فرية «دنلوب » التي أفتراها على لغتنا حين قال ، إن لغتنا لاتصلح لتدريس العلوم العصرية

ما أهنأك يادنلوب ، وأنت في قبرك تضحك منا ، لأننا حاربناك كي تجعل التدريس للعلوم باللغة العربية . ولكن ها نحن ، بعد موتك بثلاثين سنة (في ١٩٤٥) وبعد أستقلالنا ، مازلنا نعجز عن التعليم باللغة العربية

ما أهنأك . وما أتعسنا

* * *

أكتب هذا وأمامي مجلد من المجلدات ، التي ينفق عليها مجمع اللغة العربية ألوف الجنيهات من أموال الدولة ، في إختراع الكلمات العربية للمكتشفات والمخترعات الأوربية

أجل ، ما أتعسنا وما أهنأك يادنلوب

أوربا تخترع وتكتشف ، وتفتح أبواب المستقبل للأنسان

ونحن . ماذا نفعل ؟

نضع أسماء لما أخترعته أوربا وما أكتشفته . يا للحسرة

ما أحقرنا ..

أقرأ أيها القاريء هذه الكلمات التالية ، التي أخترعها مجمع اللغة ربية في الطب والبيولوجية ، وبعد ذلك أعذر أطباءنا لأنهم يعجزون

عن التأليف باللغة العربية

الخياط . الصفر . الصفاق . القمع . الرنح . الوتير . المنذنبة . .

هذا جزء من ألف ، مما يجب على المؤلفين في الطب أو البيولوچية باللغة العربية ، أن يحفظوه عن ظهر قلب ويؤلفوا به . أما الكلمات العلمية الأصلية ، لغة الطب والبيولوچية العالمية ، فيجب أن نقاطعها وننساها . ألسنا من أبناء الأرض ، وهم من أبناء المريخ ؟

مرة أخرى . ما أحقرنا

ما هي اللغة ؟

هي أداة إجتماعية ، مثل سائر الأدوات الأجتماعية

هي وسيلة التفاهم إلى أعلى ، بين أبناء الشعب

هي وسيلة المعرفة . والمعرفة قوة ، كما هي فهم

الأوربيون يفهمون الدنيا أكثر مما نفهمها الآن ، لأن معارفهم العلمية تزيد ألف ضعف على معارفنا العلمية . نحن قرويون بالمقارنة إليهم

ليست اللغة قدساً من الأقداس ، إذا كان لهذه الكلمات معنى

انما هي أدوات تبلى ، فنستبدل بها غيرها . وهي أسلوب في التعبير، أي التفكير ، يحتاج من وقت لآخر إلى التمهيد والتنقيح والتغيير

ثم بعد ذلك علينا ألا ننسى ، أن اللغة أنتاج ، مثل سائر أنواع

الأنتاج في الأمة . فكما نحب أن نزيد أنتاجنا في أقمشة القطن ، وكما نحب أن نجّود في متانة هذه الأقمشة وجمالها ، كذلك يجب أن ننتج كل عام ، بل كل يوم ، إنتاجاً لغوياً يهيء لنا التعبير الصحيح ، كي نفكر التفكير الصحيح . والتفكير العلمي هو أدق أنواع التفكير في أيامنا

لذلك يجب أن نكافح كل من يصدنا عن العلم ، أو كل من يقيم العوائق في درسه . يجب أن نؤثر أبن رشد على الغزالي

أن أبن رشد يُدَّرس ويناقش إلى الآن في جامعات أوربا ، لأنه دعا إلى العقل والفلسفة . أما الغزالي ، الذي جحد الفلسفة ، ودعا إلى منع تعليم الجغرافية ، فلا يعرفه أحد في أوربا في أيامنا

لقد صعقت عندما قرأت في صفحه ٢٨ من كتاب « المنقذ من الضلال » للغزالي ، هذه الكلمات :

« فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني ، وفي الأديان تخميني ، لا يعرف ذلك إلا من جربه وخاض فيه .. .. فهذه آفة عظيمة . لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم »

أي علوم ؟

يريد الغزالي أن يزجزنا عن دراسة الرياضيات التي أثمرت علم الذرة. وقد نجح . فقد أنزجرنا . وعرف الأوربيون الذرة التي لا نعرفها. ومجمع اللغة العربية لايصرح بضرورة زجرنا عن الرياضيات أو سائر

العلوم ، ولكنه وضع من عقبات التأليف ما جعل العلميين الأكفاء في مصر ينزجرون

فهل نبقى منزجرين ؟

* * *

كي نجعل العلوم مصرية ، كي نجعلها عربية ، نحتاج إلى شيئين :

الأول : ألا نخترع أسماء للكلمات العلمية ، بل ندخل الأسماء في لغتنا كما هي . فنقول الأتومبيل بدلاً من السيارة

والثاني : أن نكتب اللغة العربية بالحروف اللاتينية

فأما الكلمات العلمية ، فمكانها من الثقافة البشرية عالمية . فكلمات ميكروب ، وبكتريا ، وأسفلت ، وأكسوچين ، وبترول ، وڤيتامين ، وهورمون ، وديناصور ، وسيلاكانت ، ودفتريا ، ونحوها ، تعد عالمية . لأن جميع المثقفين يعرفونها بهذه الأسماء ، ولايترجمونها إلى لغاتهم . أي أن هذه الكلمات ليست أنجليزية أو يابانية أو صينية أو ألمانية أو روسية ، وإنما هي كلمات علمية ، أتفق العلميون في جميع الأمم المتمدنة على أن يبقوها كما هي ، ولا يترجموها إلى لغاتهم . ويجب علينا أن نقتدي بهم

وهذا هو عكس مايفعله مجمع اللغة العربية في مصر . فأنه يخترع كلمات عربية لهذه الكلمات العلمية . كأن العالم كله على وفاق ، إلا نحن . فأننا ننشق عليه ، ونجعل للعلم لغة ، غير لغته في جميع

الأقطار

أما الحروف اللاتينية ، فضرورة حتمية للغتنا . لأنها بحروف العلة الزائدة فيها ، تجعل النطق للكلمات صحيحاً . إذ هي ستة حروف ، بينما هي ثلاثة فقط في الحروف العربية . ولذلك نجد أن كلمة «ملك» العربية يمكن أن ننطقها بحيث تعني ستة أو سبعة معان ، بينما هي بالحروف اللاتينية يمكن ضبطها ، فلا تعني غير معنى واحد

ولكن التعبير العلمي ، وهو تعبير المستقبل ، ينهض فوق ذلك على تأليف الكلمة من أصول وزوائد لاتينية أو إغريقية ، يدل تركيبها على المعنى المقصود من الكلمة . ولذلك نحن نفهم الكلمة العلمية عندما نقرأها بالحروف اللاتينية . ذلك أننا ننطقها النطق السليم ، ونفهم مقاطعها الأصلية في اللغتين الأغريقية واللاتينية . وهذا محال في الحروف العربية الحاضرة . والفهم هو الغاية الأولى والأخيرة من اللغة . فيجب ألا نتخذ أسلوباً في الكتابة ، يؤدي إلى تعطيل الفهم أو تعويقه

* * *

وأخيراً أناشد الأطباء والمهندسين والبيولوچيين والچيولوچين والدريين والزولچيين والبوتانيين أن ينطقوا بالحق ، وأن يقولوا لنا كلمة الحق . وهو أنهم يعرفون علومهم هذه ، ويمارسون فنونها ، ولكنهم يعجزون عن تأليف بها في اللغة العربية لسببين : الأول أنهم لايستطيعون ترجمة لمات العلمية . والثاني أنهم لايجدون أن الحروف العربية تكفي

للتعبير السليم عما يرغبون في كتابته

إن عمري يقارب الآن السبعين . وأنا رجل مشغوف بالعلم ، مقدر له منذ شبابي . ومع ذلك أعترف ، بأن جميع قراءاتي أو دراساتي كانت في الأنثروبولوچية ، والچيولوچية ، والبيولوچية ، والتطور ، والسيكلوجية ، والفلكيات ، وغيرها ، كانت كلها بلا أستثناء ، باللغتين الأنجليزية والفرنسية . ولم أعثر قط في الخمسين سنة الماضية على كتاب واحد ، واحد فقط ، باللغة العربية في هذه العلوم

فإلى متى نبقى على هذه الحال ؟ وإلى متى يحرم أبناء مصر وأبناء الأمم العربية الأخرى ، هذه العلوم التي يعرفها أبناء أوربا وأمريكا ، وعن قريب أبناء آسيا ؟

لماذا نبقى في الجهل ، نتعصب للحروف العربية بلا تعقل وبلا تبصر؟

لماذا نشهد على أنفسنا ، بأن ما قاله دنلوب عن لغتنا كان صحيحاً؟

لماذا لا نَجرؤ ونُقدم على أصطناع الحروف اللاتينية . فنقتني بذلك ثقافة علمية ترفعنا بأتساع آفاقها إلى مصاف الأمم العصرية فكراً ومادة ؟

الكلمات اللاتينية والأغريقية في لغتنا

وقفت ذات مرة عند كلمتين كثيراً ما تردان على أقلام الكتاب ، هما « الصيد والقنص ». وتساءلت كيف يكون معنى الفعل « قنص » صاد ؟ إذ لايصح أن نقول إننا خرجنا للصيد والصيد . لأن هذا القول ينزل إلى درجة الجهل ، التي يبلغها الكاتب العامي في أيامنا حين يقول إننا على « أهبة الأستعداد ». والأهبة هي الأستعداد ، وتأهب تعني أستعد

ولم أقف طويلاً . فأني أدرت الكلمتين على لساني وفي عقلي ، فوجدت أن صحتهما هى «الصيد بالقنص» أي الصيد بالكلب . والكلب في اللاتينية ، لغة الدولة الرومانية ، هو كنس . ولكن جهل اللغويين العرب باللغات الأجنبية ، ورطهم في هذا الخطأ

وكنت في بعض أبحاثي أقلب المعجم الأنجليزي عن أصل كلمة «أوركسترا» أي الفرقة الموسيقية التي تعزف بالتوافق بين الآلات . فوجدت أن المعنى الحديث مصطنع . وأن الأصل في كلمة «أوركس» هو الرقص . وهذا الأصل أغريقي لاتيني . ففعل رقص ليس عربياً ، بل لاتينياً

وكثيراً ما أستوقفتني هذه الكلمات ، وهي في الأغلب فنية أدبية ، وحملتني على التفكير في الأصل لهذه العلاقة بين العرب وبين الأغريق

والرومان . وأعتقادي أن أنتقال الثقافة الأغريقية من الأسكندرية إلى الشرق العربي هو حقيقة تاريخية . ثم أتصال الأمارات العربية في حوران والعراق بالدولة الرومانية ، الغربية ثم الشرقية ، عقب المسيحية، هو حقيقة أخرى لايمكن إنكارها . حتى صار العرب يصطنعون مئات الكلمات الأغريقية واللاتينية . والكلمات اللاتينية في ريفنا وقرانا مألوفة ، مثل فدان . وجرن . وماجور . وجليد . و (الكلمة العامية) قلقيلة

فالفدان مشتق من فيودوم ، أي الماشية أو الملك في اللغة اللاتينية. وفي معاجمنا لا يزال معناه الثور أو الأرض . ومن هذه الكلمة أشتق المعنى الأقطاعي «فيودال»

أما الجرن ، الذي ندرس عليه حبوبنا ، فهو جران اللاتينية . بمعنى الحبوب

أما الماجور فهو الكبير ، أي الماعون الكبير للعجن في اللاتينية

وكلمة الجليد تحمل لفظها ، ومعناها في اللاتينية ، كما هي في العربية

أما القلقيلة فهي الحجر في اللاتينية

لنعد إلى الكلمات الفنية والأدبية . فإن كلمة لغة ، عندما نتأمل إشتقاقها العربي ، نجد أنه لا يتلاءم مع المعنى . إذ ليست هي من اللغو، وإنما هي كلمة لوغوس (والسين زائدة) اللاتينية ، بمعنى الكلمة

والقرطاس لاتينية ، وإشتقاقاتها كثيرة في اللغات الأوربية . وظني أن كراس وكراسة محرفان عنها . وكلها بمعنى الورق

وكذلك القلم فهو كلمة لاتينية ، مازلنا نجدها في قولهم عن زلة القلم « أبسيس كلموس»

وأنظر إلى كلمة « زخرفة » وهي تزيين الجدران بالرسوم ، فأنها «زوجراف » أي رسم الحيوان

ولا نذكر هنا كلمات الفلسفة ، والسفسطة ، والجغرافيا ، والتاريخ . فأنها جميعها لاتينية أغريقية . وكلمة «أرخ» الذي أشتققنا منها تاريخ، تعني القديم

ومن كلمات البناء : البرج والبلاط والقرميد والأفريز . وكذلك كلمة قرية ، فأنها لاتينية . وقد وجدنا لها صيغة وهي كورة . ولكننا خصصنا هذه الثانية للأقليم

وكذلك كلمة عقار ، فأنها هي نفسها « أكر » الأنجليزية الحاضرة ، التي تعود إلى أصل لاتيني بمعنى الأرض

ولكن ربما يزيد أستغرابنا ، عندما نجد أن هناك كلمات أصيلة في القضاء والشرع ، تعود إلى أصل لاتيني أغريقي . مثل الزكاة ، أي العُشر « ذكات». ومثل الميراث ، المشتق من الأصل إرث . وهي الكلمة الأغريقية « إريس». ومثل القسطاس أي العدل ، وهي بلفظها ومعناها في اللاتينية ، ومثل القاضي كذلك ، إذ هي لفظاً ومعنى

لاتينية . وكذلك القانون

وكنت أقرأ سورة « والنجم إذا هوى » فوجدت أن تفسير « سدرة المنتهي » لا يتفق مع المعاني التي تنطوي عليها هذه السورة الخاصة بالنجوم . إذ يقال في الكتب العربية أن سدرة هي شجرة . ولكن ليس هناك شك في أن سدرة المنتهي هي « النجم الأخير ». وهو في اللاتينية « سيديرا أولتيما »

هذه الكلمات ، ومئات غيرها ، هي رواسب الدولة الرومانية في الأقطار العربية . ومن عجب أن كلمة « فدان » لاتزال تحمل معناها الروماني القديم . وأنها هي الأصل في المعنى الأقطاعي للنظام الأجتماعي الذي كان يعيش في القرون المظلمة

وكثير ممن يتحمسون لما يزعمون أنه تقاليد « شرقية » أو عربية يجهلون ذلك جهلاً محزناً . ويعارضون في تطورنا معارضة مؤذية . لأنهم إنما يتحمسون لأحافير رومانية قد تحجرت في بلادنا ، بعد أن تخلص منها أبناء الرومان ، أي الأيطاليون

ويحسن هنا أن أضع الأصول الأغريقية واللاتينية التى ذكرتها :

قنص	كلب	Canis
رقص	رقص	Orchestre
أحب	أحب	Agappo
فدان	ملك أو ماشية	Feudum

جرن	حبوب	Grain
ماجور	ماعون كبير	Major
قلقيلة	حجر	Calcule
جليد	ثلج	Gelid
لغة	كلمة	Logos
قرطاس	ورق	Cartas
قلم	قلم	Calamus
زخرفة	رسم الحيوان	Zoograph
فلسفة	فلسفة	Philosophie
سفسطة	سفسطة	Sophism
تاريخ	قديم	Arch
البرج	البرج	Bourg
البلاط	بلاط	Palate
إفريز	إفريز	Freize
قرميد	صلصال	Ceramic
عقار	أرض	Acre
زكاة	عُشر	Decat
إرث	إرث	Hergs (الهاء صامتة)
قسطاس	عدل	Justice

قاض	قاض	Judge
قانون	قانون	Canon
سدرة المنتهي	النجم الأخير	Sidera ultima
سيف		Sif
بركان		Volcan
قرية		Curé
موسيقا		Muse
قصر		Castle

هذا قليل ، بل قليل جداً ، من مئات الكلمات الأغريقية واللاتينية ، التي دخلت لغتنا ، وبقيت على أصلها ، لم تترجم ، ولم يخترع العرب كلمات عربية تؤدي معانيها

وهذا هو ما يجب أن نفعل بكلمات العلم

نحو التوحيد

عندما نسبر الأعماق ، التي تنشأ في ظلامها هذه النزعات العجيبة نحو كراهة الحضارة العصرية ، وما يتبع ذلك من كراهة الكلمات الأوربية ، ثم أخيراً هذا التشبث بعادات ذهنية وأجتماعية شرقية ، مثل المحافظة على عادات الزواج والطلاق ، بل المحافظة على الملابس الفضفاضة ، عندما نسبر هذه الأعماق ، نجد أنها كلها ترسو على مراس من البغض للأستعمار الأوربي

هذه الأحساسات والنزعات ، يجب أن تجد منا الثناء لهذا السبب . فأن هذا الأستعمار بقي نحو مائتي سنة ، وهو يحطم الشعوب العربية ، وينهب ثرواتها ، ويفسد أخلاقها ، ويسلط عليها أوغادها . وهو يوشك على الخروج من أرضها ، ولكن بعد أن أفشى المرض والفقر والجهل في شعوبها ، ثم الأستبداد والفساد في زعمائها

نحن معذورون فيما نحس من بغض للحضارة الأوربية الزاحفة . ولذلك عندما نقاطع هذه الحضارة ، وعندما نتشبث بالموقف السلبي منها، نرفض حتى كلماتها وحروفها ، إنما نصدر في كل ذلك عن إحساس بكرامتنا التي ديست بأقدام الأستعماريين . وكأننا في هذا الموقف ، رهبان نرفض الدنيا ، لأننا لا نطيقها ، ونعتكف قانعين بالجوع والحرمان أو ما يقاربهما من الزهد

ولكن هذه الدنيا للمتعقلين ، وليست للعاطفيين

فإن الحضارة العصرية هي حضارة العلم والصناعة ، والرخاء والثراء، والصحة والثقافة . وأخيراً هي حضارة المستقبل الأشتراكي للأنسان ، هذا المستقبل الذي يوميء إلى الخير والبر والمساواة والسلم

فيجب أن نتعقل . وأن نذكر أن الأستعمار كان حقبة محتومة في تاريخ الأنسانية لم يكن مفر منها . وهو ، إذا كان قد قسا وتوحش في معاملتنا ، فأن قسوته وتوحشه لم يكونا أقل أو أرفق في معاملته للملايين من العمال في أوربا نفسها

ثم نحن بين أختيارين :

١- إما أن نهلك ونبيد ، كما باد الدينصور ، إذا ألتزمنا عاداتنا الذهنية والأجتماعية والثقافية لا نغيرها

٢- وإما أن نعين لشعبنا ، وسائر العرب ، آفاق التطور البشرية ، يتطلعون إليها ، وينشدونها ، ويهيئون لها . فنبقى ونحيا

ووسيلة البقاء والحياة في عصرنا ، هى العلم والصناعة

ولا سبيل إلى الصناعة ، بغير العلم

ولا سبيل إلى العلم ، بغير الحروف اللاتينية

نحتاج إلى ثقافة علمية تعم الشعب ، حتى يترك غيبياته ، وينزل على قوانين المادة في الزراعة ، والصحة ، والصناعة . وحتى تعمه العقلية العلمية ، فيحل مشكلات الزواج والطلاق ، والعائلة والجريمة ،

والتربية والسياسة ، بأساليب العلم . وليس وفقاً وخضوعاً للتقاليد والعقائد

وهذه النزعة العلمية في الشعب ، هي التي تحفز على التخصص العلمي ، وعلى مكافأة العلميين ، والأستماع لهم في نصائحهم وتوصياتهم بشأن الأرتقاء المادي لبلادنا . وهو ، أي هذا الأرتقاء المادي، أساس الأرتقاء الأجتماعي والثقافي والفني

والحروف اللاتينية هي وسيلة العلم ، ولا وسيلة غيرها . لأن حضارة أوربا هي الحضارة العلمية التي تربط الحاضر بالمستقبل . في حين أن حضارتنا في مصر ، تربط الحاضر بالماضي . وتشبثنا بحضارتنا ، هو عناد لا أكثر . وهو عناد قد أومأنا إلى أسبابه ، ويجب أن نكف عنه

لقد مضى علينا ثلاثون سنة ، بل أكثر (في ١٩٤٥) ونحن في أستقلال ثقافي . ومع ذلك لم نتجه الوجهة العلمية ، لأن حروف لغتنا العربية لا تلائم العلم . إذ أن كلمات العلوم تُؤلَف من كلمات لاتينية أو أغريقية ، لن نعرف كيف ننطق بها بحروفنا العربية الحاضرة . ولذلك لن نعرف معانيها

وبرهان الضرر العظيم الذي يعود علينا من ألتزام الحروف العربية ، هو أن العلميين الجامعيين من الأساتذة ، لا يزالون يؤلفون كتبهم ، ويلقون محاضراتهم باللغة الأنجليزية دون اللغة العربية

ثم يجب ألا ننسى المعنى الأنساني السامي في أتخاذ الحروف اللاتينية ، معنى الأنضمام في الثقافة إلى ألف مليون أنسان متمدن . نحيل الأنفصال بيننا وبينهم إلى أتصال ، والخلاف إلى وفاق . وفي كل هذا ، سلم وحب وأنسانية

تلخيص

سبق أن قلت إن الذي بعثني على تأليف هذه الرسالة أو هذا الكتاب، هو مقال نشره الأستاذ أحمد أمين في مجلة الثقافة ، بشأن ما يطرأ على الكلمات من تغيير ، لأختلاف الزمان أو المكان الذي تستعمل فيها . وأرجو القاريء أن يعرف ، أن ما كتبته هو بمثابة التعقيب أو الشرح (الذي قد لايرضاه أحمد أمين) لهذا المقال . وغايتي قبل كل شيء المناقشة ، حتى نصل إلى تمحيص جديد لمعاني الكلمات، وأستخدام هذه الكلمات في بلاغة جديدة للفهم السديد

ومع أن ما سبق إنما هو تلخيص ، فإني أعتقد أن القاريء يحتاج هنا إلى تلخيص التلخيص . حتى تبرز الأعلام الهامة لهذا الموضوع :

١- يجب أن نكبر من شأن لغتنا العربية ، وأن نوليها أعظم أهتمامنا . لأنها وسيلة التفكير . ولايمكن التفكير الحسن بلا لغة حسنة

٢- كان فن البلاغة العربية ، ولا يزال إلى الآن ، فن التعبير عن العاطفة والأنفعال . ونحن لانفكر ، حين ننفعل أو نستسلم للعاطفة ، التفكير الحسن . ولذلك فأن هذا الفن ، لايخدم التفكير العلمي والفلسفي

٣- المجتمع الحسن هو الذي يقوم على العقل ، وحل المشكلات بالمنطق . فنحن في حاجة إلى بلاغة جديدة ، تؤدي إلى دقة الفهم

العلمي ، لإيجاد مجتمع علمي . بلاغة تميز بين الكلمة الذاتية ، وبين الكلمة الموضوعية

٤- اللغة هي تراث قديم ، تحمل كلماتها معاني الحياة البدائية (الحياة من الحيا ، والروح من الريح) أو تحمل معاني السحر (علا نجمه ، وأفل نجمه). بل هي حافلة بأحافير ورواسب يجب أن نتوقى أستعمالها إذا شئنا التفكير السديد

٥- كان المجتمع العربي القديم يستند إلى العقائد والتقاليد ، وكان مجتمعاً حربياً يحتاج إلى لغة العواطف والأنفعالات التي تحرك الأرادة. ولذلك أصبحت بلاغته كذلك . وهي لهذا السبب صغيرة القيمة في خدمة مجتمعنا ، الذي نحاول أن نجعله يسير على مباديء المنطق والعقل والعلم

٦- داء الأدب واللغة عندنا هو الكلاسية ، أي التليدية . وهي تؤدي عندنا إلى محاولة أسترداد الأمس بالتعبير والتفكير

٧- المبالغة في هذه الكلاسية تؤدي إلى تحجر اللغة ، كأنها لغة الكهنة في المعابد . فتقطع الصلة بينها وبين المجتمع

٨- في لغتنا كلمات تحمل شحنات عاطفية سيئة ، تؤدي إلى أرتكاب الجرائم (الدم ، والعرض ، في الصعيد) أو إلى كراهة بعضنا بعضاً (كافر ، نجس) والكلمات الجنسية التي تؤدي إلى خيالات الحشاشين . وعلينا أن نقي عقولنا من هذه الكلمات

٩- للكلمة إيحاء أجتماعي للخير أو الشر ، فيجب أن نستغل اللغة للتوجيه الحسن للأمة والفرد . والبلاغة القديمة ، بلاغة العاطفة والأنفعال ، مفيدة هنا للتوجيه الأجتماعي الحسن . ولكن مع الحذر العظيم من الدعاية السيئة

١٠- لن نستطيع الأنتفاع بذكائنا إلا إذا كانت اللغة ذكية أيضاً . أي تؤدي المعاني الدقيقة في العلوم والفلسفات . ومن هنا ضرورة العناية بتمحيص المعاني ، حتى نمنع الألتباس . ولهذا تجب مقاطعة المترادفات والمتشابهات (مثل بلدة للمدينة وبلد للقطر)

١١- الكلمات الحسنة في اللغة الحسنة تبني الأخلاق ، حتى ليصح أن تعد الكلمة شعاراً ننضوي إليه ، كما لو كان راية في جهاد . وعندنا من كلمات المروءة ، والشهامة ، والبر ، والحرية ، وأمثالها ، ما نبني به المجتمع الحسن

١٢- علينا أن نزيد في لغتنا مثل هذه الكلمات ، بحيث تخدم تطورنا العصري . فنؤلف الكلمات التي توحي الرقي ، وزيادة الصحة والسعادة ، والنور والثقافة

١٣- البلاغة الجديدة هي بلاغة المنطق الذي يرشدنا إلى توقي الخطأ. والتفكير السديد هو التفكير العلمي الموضوعي الذي يقوم على التجربة . واللغة الحسنة هي التي تؤدي المعنى في دقة هندسية ووضوح إقليدي

١٤-نشأت في عصرنا الحديث لغتان جديدتان . إحداهما لغة العلوم، فيجب أن نأخذ كلماتها جميعها بلا ترجمة . ولغة كوكبية أخرى ينطق بها كل متمدن في الدنيا ، مثل التليفون والتلغراف وسينماتوغراف والرديوفون . فيجب ألا نقاطعها ، لأنها لغة كوكبية جديدة لا تملكها أمة دون أخرى

١٥- كل إنسان متمدن يجب أن يتعلم ثلاث لغات : لغته الأصلية التي تعلمها من أمه . ولغة العلوم التي تكتب بها الچيولوچية واليوچنية والفسيولوچية والكيمياء الخ . ولغة هذا الكوكب كما تُرَى في كلمات كوكبية تنشرها الجرائد والكتب .

١٦- يجب أن نستبصر بحركة الأستاذ أوجدين في الأيجاز والتبسيط ، بأختيار الكلمات التي لا تتحمل الشكوك في معانيها . وأن نيسر تعليم اللغة العربية للعربي وللأجنبي

١٧- لغتنا العربية كثيرة القواعد والشذوذات ، والكلمات المترادفة أو المشتبهة . وهي تحتاج من الوقت لتعلمها نحو ثمانية أو عشرة أمثال الوقت الذي تحتاجه اللغة الأنجليزية . فيجب أن نتجه نحو تيسيرها ، بالأقلال من القواعد والشذوذات ، بل ومن الكلمات

١٨- إتخاذ الخط اللاتيني يحمل الأمة إلى الأمام مئات السنين . ويكسبها عقلية المتمدنين . ويجعل دراسة العلوم سهلة . وهو خطوة نحو الأتحاد البشري

فهرست

الصفحة

دار ومطابع المستقبل
بالفجالة والاسكندرية
ومكتبة المعارف ببيروت

« كل كلمة ، هي صورة الصورة ، رمز لأحد الأوهام »

أناطول فرانس

« أنها لفكرة رهيبة أن نقول أنه ليس هناك أحد ممتاز حقاً ، يستطيع أن يعرف ماذا يقصد . أنظر الى عظماء هذا العالم : ساسته ، فأننا لا نناقش ما يقولون ، بل ماذا كانوا يقصدون حين قالوا هذا القول أو ذاك»

چيمس باري

« يفخر الصانع ويعنى بالآته وأدواته . ولايؤدي الجراح عملياته بموسى قديم والرياضي يبحث وينقب في لذة عن أدوات الرياضة ، كالمضرب أو البندقية أو غيرهما . ولكن الرجل الذي يعمل بالكلمات ، مالم يكن قد أحترف التأليف (بل ليس هذا دائماً) يهمل إهمالاً عجيباً في أختيار أدواته . وهو لا يعرف أنه في حالات كثيرة ، كلما قلت كلماته ، زادت قيمتها »

إيڤور براون

« يفكر الناس في أهمال ، لأنهم يكتبون في أهمال . ويؤدي الأهمال الى مخالفة الحقائق ، والى التعبير برطانة تضلل الناس والأمم في سلوكهم وعقائدهم . أجل . إن من أساء الكتابة ، فقد كذب »

الملحق الادبى لجريدة التيمس

دار ومطابع المستقبل بالفجالة والأسكندرية

ومكتبة المعارف ببيروت